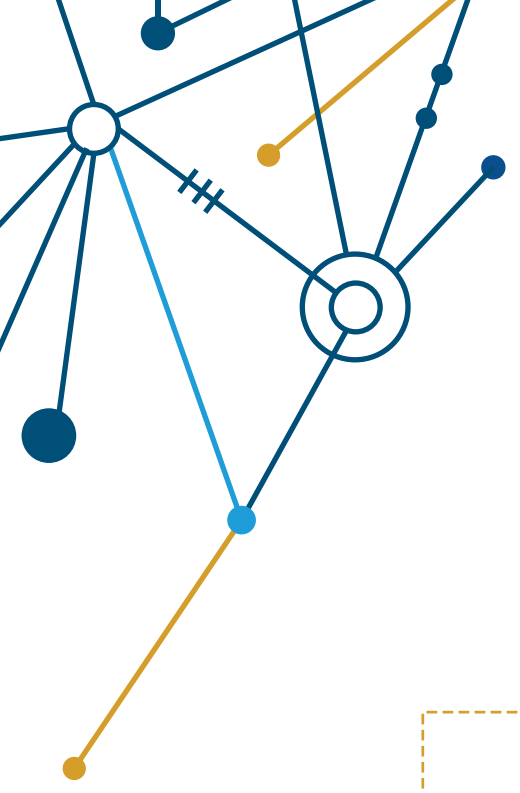

معهد الجزيرة للإعلام
زمالة الجزيرة - 2023
ورقة بحثية

التصوير الوثائقي الفوتوغرافي في العالم العربي

خالد آيت ناصر

مشرف البحث
بشار حمدان

جميع الحقوق محفوظة @ معهد الجزيرة للإعلام 2024

برنامج زمالة الجزيرة:

برنامج أطلقه معهد الجزيرة للإعلام، ويهدف إلى تشجيع البحث الأكاديمي، وإتاحة الفرصة أمام الصحفيين والباحثين للاطلاع على تجارب عملية ودراستها بعمق، بشكل يسهم، مع جهود مؤسسات عربية وعالمية عديدة، في تحسين مهنة الصحافة والعبور بها إلى المستقبل.

خالد آيت ناصر:

صحفي مغربي مستقل، وباحث في السينما الوثائقية ومصور فوتوغرافي ومعد برامج تلفزيونية. أستاذ سابق بمعهد الصحافة وتكنولوجيا الإعلام، وعمل مع عدة مؤسسات صحفية محلية ودولية. حاصل على ماجستير في التحرير الصحفي والتنوع الإعلامي، وشهادة بكالوريوس في التحرير الصحفي، وأخرى في الشريعة والقانون بالمغرب.

ملخص البحث

يتناول هذا البحث دراسة التصوير الوثائقي الفوتوغرافي في العالم العربي وتحليله، مع التركيز على السياق التاريخي، ومرتكزات التصوير الوثائقي، والاختلافات بينه وبين التصوير الصحفي، ويستعرِض الأساليب الفنية والجمالية المستخدمة في هذا النوع من التصوير، علاوة على تسليطه الضوء على بعض التجارب الميدانية لمصورين عرب. كذلك يناقش البحث الأخلاقيات والتحديات التي تواجه المصورين الوثائقيين في إنتاج مشاريعهم البصرية، ويهدف إلى تقديم إرشادات عملية وفنية للمصورين الفوتوغرافيين من خلال عرض تجاربهم في الميدان.

الكلمات المفتاحية: الوثائقي الفوتوغرافي، التصوير الصحفي

الفهرس

المقدمة 7

الإطار المنهجي 8

الإطار النظري 9

الإطار التطبيقي 11

نتائج وتوصيات 51

المصادر والمراجع 54

مقدمة

أسهم التقدم التكنولوجي بصورة كبيرة في تعزيز انتشار الصحافة المصورة، ما أتاح لها القدرة على تجاوز قيود الزمان والمكان[1]. مصطلح "الصحافة المصورة"، الذي يُعرف أيضًا بأسماء مثل "الصحافة البصرية" و"الصحافة التصويرية" و"الصحافة الفوتوغرافية"، يُنسب إلى كليف إديوم (Cliff Edom) (1907 -1991)، الذي أطلق أول ورشة تدريبية للصحافة المصورة في جامعة ميسوري عام 1946. تهدف الصحافة المصورة إلى تقديم موضوعات تحريرية مدعومة بالصور؛ إذ يمكن أن تشغل الصور نسبة كبيرة من المساحة المنشورة، تصل أحيانًا إلى ثلث المحتوى، وقد أصبحت الصور بذلك جزءًا أساسيًّا ومتكاملًا مع المادة التحريرية، وفي بعض الحالات، قد تحل محل النص كاملًا أو يُكتفى معها ببعض التعليقات التوضيحية المختصرة[2].

في هذا السياق، يُعدّ التصوير الوثائقي الفوتوغرافي جزءًا من "الصحافة المصورة"؛ إذ يُستخدم لتوثيق الأحداث التاريخية والمهمة وتسجيلها، ويُوظَّف هذا النوع من التصوير غالبًا في التصوير الصحفي المهني أو في تصوير الحياة الواقعية (الريبورتاج)، ويمكن أيضًا أن يُنجَز من قبل هواة أو فنانين أو أكاديميين[3]. وعادة ما يكون التصوير الوثائقي مرتبطًا بالمشاريع الصحفية التي تعالج موضوعات معمقّة تحتاج وقتًا لإعدادها، بينما يكون التصوير الصحفي مرتبطًا عادة بتغطية الأخبار الآنية والتقارير اليومية[4].

لعب التصوير الوثائقي الفوتوغرافي دورًا محوريًّا في الوطن العربي؛ إذ وثّق عددًا من الأحداث الكبرى التي شكّلت تحولًا في المنطقة، بما في ذلك الحروب، والكوارث الطبيعية، وقضايا الهجرة واللجوء الإنساني، وثورات الربيع العربي، والتغيرات المناخية، وجائحة كورونا، علاوة على القصص الإنسانية والاجتماعية التي التقطتها عدسات المصورين. ولا يزال عدد من هذه الصور الوثائقية عالقًا في ذاكرة الجمهور العربي، ما يؤكد قوة الصورة الوثائقية في توثيق الواقع وتحقيق تأثير بصري طويل الأمد.

ومع ظهور التقنيات الحديثة، تطورت الممارسات المتعلقة بالتصوير الفوتوغرافي على نحو أسهم في زيادة عدد المصورين بسبب سهولة الحصول على الأدوات، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة عدد الممارسين للتصوير في دول العالم العربي[5]. ولكن على الرغم من تزايد عدد المصورين وانتشار الأدوات الاحترافية للتصوير، فإن مساحة انتشار الصور الفوتوغرافية ظلت رهينة الصحف الورقية والمواقع الصحفية الإخبارية، وهو ما جعل المصورين أسيرين للعمل اليومي العاجل وحَدّ من قدرتهم على إنتاج مشاريع صحفية طويلة الأمد تقدم معالجات صوريّة معمقة، ولا سيما في ظل محدودية المؤسسات الصحفية التي تدعم أنواعًا كهذه من المشاريع[6].

وفي محاولة لتقديم منظور جديد للوثائقي الفوتوغرافي ودمجه في الممارسة الصحفية في العالم العربي، سبق لمعهد الجزيرة للإعلام إطلاق منصة "قصة" من أجل اختبار قوالب الكتابة القصيرة في الصحافة،

---

[1] عمرو محمد جلال محمد، "المتطلبات التصميمية لتحويل الصورة الصحفية لصورة وثائقية مع مقاييس التفضيل الجمالي لمعالجتها"، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، 26 يوليو، 2023، ص 2، https://cutt.us/9ltFx

[2] محمد خليل الرفاعي، "فن التصوير الصحفي"، الجامعة الافتراضية السورية، 2020، ص -22 35.

[3] Erdem Selvin, "The Beauty of Documentary Photography" Bogazici University, Istanbul, Turkey, May 17, 2015, Academia.edu, Retrieved February 1, 2023, https://cutt.us/mYODD .

[4] HUGO PINHO, "DEVELOPING A DOCUMENTARY PHOTOGRAPHY PROJECT", MH Media, 2017, P : 2, PDF .

[5] سيما دياب، " التصوير الوثائقي العربي.. قصص مرئية"، 13 أبريل 2019، (تم الاطلاع يوم 3 فبراير 2023) https://cutt.us/PuAgz .

[6] برنامج التصوير الفوتوغرافي العربي، 1 فبراير 2022، (تم الاطلاع يوم 3 فبراير 2023) https://www.arabculturefund.org/ar/Programs/17 .

نظرًا لوجود إشكالات ميدانية في ممارسة الصحافة في العالم العربي[7].

تقوم فكرة المنصة على تطوير قصة صحفية قصيرة تتكون من 100 إلى 150 كلمة مرفقة بصورة صحفية، سعيًا لاختبار إمكانية ممارسة الصحافة من خلال قصة قصيرة وصورة صحفية، في محاولة لتشجيع العمل الصحفي الإنساني المتأني غير المرتبط بالتغطيات الإخبارية الآنية في ظل التدفق المرعب للمحتوى في الشبكات الاجتماعية، عبر صور تتناول أحوال الناس التي تأثرت بالسياسات الخاطئة في هذا العالم، وذلك بتوظيف أسلوبَيْ الملاحظة والتأني المعمول بهما في العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجيا[8].

الإطار المنهجي

إشكالية البحث وأسئلته

ينطلق هذا البحث من إشكالية رئيسة تتعلق بالمقاربات التي يمكن فيها للمصورين الوثائقيين في العالم العربي توثيق الأحداث والقضايا الاجتماعية بدقة وموضوعية، مع الالتزام بالأخلاقيات المهنية والاحترافية، في ظل التحديات المرتبطة بالتحول الرقمي والضغوط الاجتماعية والسياسية.

ولمحاولة معالجة هذه الإشكالية، سيسعى هذا البحث إلى الإجابة عن الأسئلة البحثية التالية:

ما الأسس النظرية والعملية التي يستند إليها التصوير الوثائقي الفوتوغرافي في العالم العربي؟ وكيف يمكن تمييزه عن التصوير الصحفي؟

ما الأخلاقيات المهنية التي يجب على المصورين الوثائقيين الالتزام بها؟ وما التحديات التي تواجههم في العالم العربي؟

أهداف البحث

تتجلى أهمية هذا البحث في أنه يسعى إلى تسليط الضوء على دور التصوير الوثائقي الفوتوغرافي في توثيق الأحداث الاجتماعية والإنسانية في العالم العربي؛ إذ يمثل وسيلة فعّالة لنقل الواقع والتعبير عن قضايا المجتمع المعاصر. يسهم البحث في تحديد الأسس النظرية والعملية لهذا النوع من التصوير، على نحو يعزز فهم الممارسات الإبداعية للمصورين الوثائقيين، ويتيح لهم استكشاف الفروق الجوهرية عن التصوير الصحفي. علاوة على ذلك، يتناول البحث الأخلاقيات المهنية اللازمة لضمان النزاهة والموضوعية، ما يسهم في رفع مستوى الاحترافية في هذا المجال، كذلك يهدف إلى دراسة التحديات التي تواجه المصورين في بيئات عمل متنوعة، ما يعكس أهمية التصوير الوثائقي بوصفه أداة لتوثيق الذاكرة الجماعية وتعزيز الوعي الاجتماعي. في نهاية المطاف، يسعى هذا البحث إلى إثراء المكتبة العربية بفهم أعمق لواقع التصوير الوثائقي الفوتوغرافي وتأثيره على المجتمع والثقافة.

منهج البحث

يعتمد هذا البحث على المنهج الوصفي (Qualitative descriptive)[9] أداةً رئيسة لاستكشاف التصوير الوثائقي الفوتوغرافي في العالم العربي ودراسته. يتضمن هذا المنهج جمع البيانات والمعلومات المتعلقة بالأسس النظرية والعملية لهذا النوع من التصوير، مع تحليلها لفهم كيفية تمييزه عن التصوير الصحفي. من خلال هذا الإطار، يُسلّط الضوء على الأخلاقيات المهنية والمعايير التي يجب أن يلتزم بها المصورون، فضلًا عن استكشاف التحديات التي تواجههم في

[7] معهد الجزيرة للإعلام، "منصة قصة"، تم الاطلاع بتاريخ 3 فبراير 2023. https://institute.aljazeera.net/ar/digital-stories/all

[8] مقابلة مع الأستاذ منتصر مرعي مدير إدارة المبادرات الإعلامية - معهد الجزيرة للإعلام - الدوحة، قطر.

[9] Kim, Hyejin, Justine S. Sefcik, and Christine Bradway. "Characteristics of qualitative descriptive studies: A systematic review." Research in nursing & health 40, no. 1 (2017): 23-42.

ممارساتهم اليومية. يساعد هذا المنهج أيضًا في ربط النظريات بالواقع الميداني، ما يمكن الباحث من تقديم رؤى متعمقة وشاملة بشأن كيفية تأثير التحول الرقمي على أساليب التصوير الوثائقي. بذلك، يسهم المنهج الوصفي في بناء قاعدة معرفية راسخة تسهم في تطوير فهم شامل لدور التصوير الوثائقي في توثيق القضايا الاجتماعية والإنسانية.

عينة البحث

وظف الباحث أداة المقابلة لغاية استخراج المعلومات المتعلقة بهذا البحث، من خلال إجراء مجموعة من المقابلات مع 10 مصورين وثائقيين ومتخصصين.

الإطار النظري

الدراسات السابقة

عالجت عدة أبحاث ودراسات أكاديمية دور التصوير الفوتوغرافي الوثائقي في نشر الوعي بشأن القضايا المجتمعية المختلفة، وكيفية تقديم معالجات مؤسَنَة لقضايا إشكالية وشائكة، كالحروب والأوبئة والكوارث وقضايا اللجوء والهجرة والاضطرابات السياسية وغيرها.

إذ تحدثت دراسة بعنوان "Photography in Social Work and Social Change: Theory and Applications for Practice and Research"[10] عن دور التصوير الفوتوغرافي في مجال العمل الاجتماعي، وقدرة السرد المرئي على زيادة الوعي بالقضايا الاجتماعية وتعزيز التعاطف، على نحو يساعد على تحسين التفاعل بين الأفراد والمجتمعات. تستعرض الدراسة أمثلة عملية لكيفية دمج التصوير الفوتوغرافي في ممارسات العمل الاجتماعي، ما يساعد المهنيين في تحقيق نتائج إيجابية. كذلك يُشير البحث إلى أن استخدام الأساليب البصرية في العمل الاجتماعي يمكن أن يحسّن الفهم للظروف الاجتماعية المعقدة، ويعزز من قدرة المجتمع على التعامل مع هذه القضايا. تتناول الدراسة أيضًا التحديات التي تواجه المصورين في تمثيل القضايا الاجتماعية بعدالة ودقة، وتشير إلى أهمية أن يتمكن المصور من تقوية علاقته بالمجتمع، ليتمكن من تصوير تجارب أفراده بطريقة تعكس الحقيقة.

وهو ما يتسق مع ما وجدته دراسة "Documentary Photography as a Tool of Social Change: reading a shifting paradigm in the representation of HIV/AIDS in Gideon Mendel's photography"[11]، التي تبحث في كيفية استخدام التصوير الوثائقي وسيلةً فعالة للتغيير الاجتماعي، مع التركيز على السياق المتعلق بفيروس نقص المناعة البشرية (الإيدز)؛ إذ يتناول البحث دور المصورين في تشكيل معاني الصور وتأثير ذلك على الجمهور والمجتمع. يشير البحث إلى أهمية مصداقية الصور والتواصل الفعّال من خلال الرسائل البصرية. يُناقش أيضًا كيفية استجابة الجمهور لتلك الصور؛ إذ يسلط الضوء على أهمية السياق الثقافي والاجتماعي في فهم الرسائل المصورة. كذلك تدعو الرسالة المصورين إلى تحمل المسؤولية تجاه موضوعاتهم، مشيرة إلى ضرورة الحفاظ على النزاهة في تقديم الصور من دون أي تحريف. يوضح البحث أن الصور الوثائقية تعزز الوعي بشأن قضايا صحية واجتماعية، ما يسهم في محاربة الوصم الاجتماعي من خلال تقديم تقنيات سرد قصص فاعلة، وتُعزز الرسالة أهمية دور المصور في توصيل الحقيقة وزيادة الوعي في القضايا المهمة.

وفي سياق تأثير الصور الفوتوغرافية على الرأي العام، بحثت دراسة "The Rhetorical Power of News Photographs: A Triangulatory

[10] Sprague Martinez, Linda. "Photography in Social Work and Social Change: Theory and Applications for Practice and Research. Matthias J. Naleppa, Kristina M. Hash, and Anissa T. Rogers." (2024): 317-318.

[11] Nesbitt Hills, Christine. "Documentary Photography as a Tool of Social Change: reading a shifting paradigm in the representation of HIV/AIDS in Gideon Mendel's photography." (2011).

Reception Approach to the Alan Kurdi Images"[12] التأثير الكبير للصور الفوتوغرافية في الأخبار على الرأي العام، مع التركيز خصوصًا على صور الطفل السوري إيلان الكردي، الذي غرق في أثناء محاولة أسرته الهروب من الصراع في بلاده.

وتناول البحث ثلاثة جوانب رئيسة: السياق الذي عُرِضت فيه الصور، والتفسيرات التي قدمتها جماهير متنوعة، والآثار الأوسع على الخطاب العام المتعلق بأزمة اللاجئين. يُبرِز التحليل أن هذه الصور لم تكن تمثيلات مأساوية للمعاناة الفردية فحسب، بل كانت أيضًا محفزات لاستجابة إنسانية أوسع.

وتتطرق الدراسة إلى كيفية إسهام صور الطفل إيلان الكردي في أنسنة أزمة اللاجئين، ما أثار ردود فعل عاطفية قوية أدت إلى زيادة الوعي العام وتغييرات في السياسات تجاه اللاجئين في بلدان مختلفة.

تعريف الوثائقي الفوتوغرافي

ليس ثمة تعريف أو معنى دقيق لمصطلح "التصوير الفوتوغرافي الوثائقي"؛ إذ يعدّ مصطلحًا شاملًا لمجموعة متنوعة من أعمال التصوير، بسبب تميزه عن الأشكال الأخرى من التصوير (التصوير الصحفي- التصوير الرياضي - تصوير الحياة البرية- تصوير الحروب- تصوير الموضة – التصوير المعماري- التصوير التجريدي...)[13]. ولأنّ التصوير الوثائقي "أداة تتجاوز التعبير الفني البحت لتصبح وسيلة لنقل رسالة وتقديم أدلة تاريخية؛ إذ يقوم التصوير الوثائقي على الاعتقاد بأن الصور تقدم تمثيلاً واقعيًا للحقيقة، فإن المصورين الوثائقيين يسعون إلى سرد قصة أو إيصال منظور معين، ما يُسهم في تشكيل الرأي العام وتوثيق الظروف الاجتماعية والتاريخية"[14].

ومن المحاولات التي سعت لتعريف الوثائقي الفوتوغرافي، نذكر التعريف الذي حدده معهد الجزيرة للإعلام، وهو أن "الوثائقي الفوتوغرافي عبارة عن معالجة خلّاقة للواقع وسرد القصص بالاعتماد على سلسلة من الصور الفوتوغرافية الثابتة التي يرادفها النص في بناء درامي مبدع ومحكم، ويعتبر هذا النمط غير شائع في العالم العربي، ولكن وجود المنصات الرقمية يتيح المجال للصحفيين والمبدعين في اعتماد مقاربة مختلفة في سرد معمق للقصص والإضاءة على إشكاليات عديدة في المجتمع"[15].

---

[12] Kjeldsen, Jens E., and Ida Andersen. “The rhetorical power of news photographs: A triangulatory reception approach to the Alan Kurdi images.” Rhetorical audience studies and reception of rhetoric: Exploring audiences empirically (2018): 309-333.

[13] عمرو محمد جلال محمد، "المتطلبات التصميمية لتحويل الصورة الصحفية لصورة وثائقية مع مقاييس التفضيل الجمالي لمعالجتها"، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، 26 يوليو، 2023، https://cutt.us/9ltFx

[14] Curtis, James. “Making sense of documentary photography.” History matters: The US survey course on the Web 6 (2003).

[15] معهد الجزيرة للإعلام، "وثائقي الصورة الفوتوغرافية"، 24 سبتمبر 2019، https://institute.aljazeera.net/ar/course/6852 . (تم الاطلاع يوم 25 يناير 2023)

الإطار التطبيقي

الفصل الأول: مفاهيم أساسية في الوثائقي الفوتوغرافي

مرتكزات الوثائقي الفوتوغرافي

للشروع في إنتاج مشاريع وثائقية فوتوغرافية بناءة، يجب التمكن من مجموعة من المرتكزات الأساسية، وهنا نورد إرشادات مصورين وثائقيين نابعة من تجاربهم الميدانية في هذا المجال منذ سنوات.

في رأي المصور عمار عبد ربه، يعتمد التصوير الوثائقي الفوتوغرافي على مجموعة من المرتكزات الأساسية، أبرزها الحقيقة والأمانة. يشدد عبد ربه على ضرورة أن يلتزم المصور الوثائقي بتقديم الأحداث بدقة وعلى نحو صحيح، مع تجنب أي تحريف أو تلاعب بالحقائق. كذلك يؤكد أهمية البُعد الإنساني في التصوير الوثائقي؛ إذ يتعين على المصور تسليط الضوء على الجوانب الإنسانية للأحداث والأشخاص المُصوَّرين، بهدف إيصال رسالة إنسانية قوية من خلال الصور.

علاوة على ذلك، يشير عبد ربه إلى أهمية الجودة العالية للصور، من حيث وضوح التفاصيل والدقة في الإضاءة، ويرى أن الإبداع عنصر حاسم في التصوير الوثائقي؛ إذ يتطلب من المصور استكشاف أساليب جديدة ومبتكرة لتوثيق الموضوعات بطرق تشد الانتباه وتثير الاهتمام. كذلك يشدد على ضرورة الالتزام بالأخلاقيات المهنية والعامة، واحترام خصوصية الأفراد الذين يظهرون في الصور، بما يتماشى مع معايير العمل الصحفي وأخلاقياته[16].

بينما أشار المصور الوثائقي حسن الصياد إلى مجموعة من المرتكزات الأساسية للتصوير الوثائقي الفوتوغرافي:

- على المصور تجاوز مرحلة توثيق لحظة أو مشهد، والانتقال إلى مرحلة صناعة قصة من خلال الصورة.
- ينبغي أن يعكس التصوير الواقع على نحو صادق وصريح، بعيدًا عن أي تحريف أو تأثيرات تكنولوجية قد تغير من مضمون الصورة.
- يجب أن يسهم المصور الوثائقي في التوعية وخلق التغيير الإيجابي في المجتمع.
- من المهم أن يركز المصور على فكرة قوية تتمتع بقدرة تأثيرية كبيرة وجاذبة.
- يجب أن تلعب الجوانب التقنية والجمالية دورًا حقيقيًّا في تعزيز القوة التعبيرية والجاذبة للصورة.
- كذلك ينبغي أن يمتلك المصور القدرة على الصبر وإعادة التصوير إذا لم يكن راضيًا عن النتائج السابقة، أو عند تلقي ملحوظات من المعنيين بالقصة أو شركاء العمل.[17]

أهمية الوثائقي الفوتوغرافي

من خلال تجربتها الميدانية، تنظر المصورة الوثائقية سمر أبو العوف من غزة بفلسطين إلى أهمية التصوير الوثائقي

[16] مقابلة الباحث مع المصور عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

[17] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي حسن الصياد، بتاريخ 09 مارس 2023.

بوصفه أداة مهمة لإيصال رسائل الناس، وتوثيق حياة الشعوب، والقصص الإنسانية من خلال الصورة؛ إذ تشير إلى أن الصورة تمثل قصة في حد ذاتها، وتُعد تجسيدًا للحظة من حياة الناس قد لا تتكرر، وقدرة الصور الفوتوغرافية على توثيق الأحداث وترك ذكرى خالدة تسهم في تسجيل اللحظات المهمة في التاريخ[18].

أما عند المصور مهدي مريوش، فتتجلى أهمية التصوير الوثائقي في أنه هو "التاريخ ونحن الشهود على عصرنا، وأفضل طريقة نشهد بها على عصرنا هي عبر الصورة، التصوير بالنسبة لي هو أهم وسيلة يمكن أن نوثق بها العصر ونشهد بها عليه"[19].

وفق هذا التصور، تتأكد قيمة الصورة الوثائقية من قدرتها على تقديم الأدلة البصرية التي تثبت الحقائق؛ إذ تُحوَّل الرموز التواصلية إلى مشاهد اجتماعية تعكس حركة الحياة باستمرار. كذلك تبرز قوة الصورة الوثائقية في جهودها لبناء مفاهيم واضحة بشأن مضمون الموضوع المقدم، ما يعزز من تأثيرها ويعمق فهم المتلقي[20].

يتجلى دور التصوير الفوتوغرافي الوثائقي في قدرته على توثيق الأحداث والمشاعر والأفكار، ما يجعلها جزءًا حيويًّا من الذاكرة الجماعية. لقد أحدث هذا النوع من التصوير تأثيرات عميقة؛ إذ يُعدّ وسيلة فعالة لنقل الحقائق في الأوقات العصيبة التي يتعذر فيها التعبير بالكلمات. كذلك يُستخدم لكشف المشاهد المؤلمة وزيادة الوعي بالقضايا المهمة، مثل الفقر، والجوع، والحروب، والكوارث الإنسانية، على نحو يسهم في إعادة تشكيل الرأي العام على المستويين المحلي والدولي. علاوة على ذلك، يُبرز التصوير الوثائقي القدرة على التقاط تنوع المشاعر الإنسانية، وهو ما يُلهم المتلقين للسعي نحو التغيير. يعدّ التواصل العاطفي البصري أحد أكثر طرق التعبير صدقًا وفاعلية، ما يعزز من تأثير الصورة في النفوس[21].

كذلك تأتي أهمية التصوير الوثائقي الفوتوغرافي من طبيعة التحولات التي تشهدها الصحافة بأنماطها المختلفة ضمن المشهد الصحفي في العالم، وهي تحولات سريعة مرتبطة بسرعة وتيرة التحول الرقمي؛ إذ استفاد الوثائقي الفوتوغرافي من هذا التحول الرقمي وأصبحت له أدوار رقابية وتواصلية واتصالية بين الأجيال وبين الحضارات، ويجمع بين التوثيق وإبراز القيم الجمالية والتنوع الموجود في المجال الذي يشتغل فيه.

متى تكون الصورة وثائقية؟

في هذا الإطار، يوضح المصور الصحفي والوثائقي عمار عبد ربه أنه يمكن أن نميز بين التصوير الصحفي والتصوير الوثائقي عبر عدة عوامل، منها التقنيات المستخدمة والنهج الفني؛ إذ إن التصوير الوثائقي الفوتوغرافي يتميز بالتركيز على الجمال الفني والتكوين الفوتوغرافي، بينما يتميز التصوير الصحفي بالتركيز على التوثيق الفوري للحدث ويعطي مكانة كبيرة للتلقائية.

ويهدف التصوير الوثائقي الفوتوغرافي إلى توثيق الواقع بدقة (وفق أسلوب محدد من قبل المصور)، سواء أكان ذلك عن طريق تصوير الحياة البرية أو الثقافات الشعبية أو الأحداث التاريخية والاجتماعية... كذلك يعتمد التصوير الوثائقي على المشاهد الطبيعية والمشاهد الأكثر نشاطًا، وعادة ما يُعَدّ المشروع الوثائقي بصورة مخطط لها مسبقًا.

أما التصوير الصحفي، فيركز على توثيق الأحداث الجارية والإخبارية، ويتطلب سرعة فائقة وحساسية لتغيرات الواقع، ويتميز بالمرونة والقدرة على التكيف مع الظروف المتغيرة بسرعة[22].

---

[18] مقابلة الباحث مع المصورة الوثائقية سمر أبو العوف ،بتاريخ 04 مارس 2023.

[19] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي مهدي مريوش، بتاريخ 02 مارس 2023.

[20] فايزة يخلف: مسالك خطاب الصورة: المؤتلف والمختلف، مركز الكتاب الأكاديمي، 2021، ص 09.

[21] سارة عابدين، التصوير الفوتوغرافي.. كيف تعبر الصورة عن أيديولوجية صاحبها؟ الجزيرة. نت، 14 يوليو 2019، (تم الاطلاع يوم 3 فبراير 2023) https://cutt.us/tl2mG .

[22] مقابلة الباحث مع المصور الصحفي الوثائقي عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

الفصل الثاني: مراحل إنتاج المشروع الوثائقي الفوتوغرافي

كتابة فكرة المشروع واختيار زاوية المعالجة

تُعَدّ صفة البحث من الخصائص الأساسية للمصور؛ إذ تسهل عليه اكتشاف القصص من خلال السفر المستمر والتواصل مع الناس والتفاعل مع الطبيعة. تختلف القصص من منطقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر؛ وذلك بحسب الخصوصيات التاريخية والأوضاع السياسية والأعراف ومستوى الوعي المجتمعي. ومن ثَمّ، يظلّ اختيار القصص مرتبطًا بمدى تأثيرها في المصور أولًا واقتناعه بها، ليتمكن من ترجمتها عبر صوره إلى سرد قصصي[23].

على الرغم من ذلك، فلا توجد طريقة محددة وموحَّدة يتبعها المصورون لإنجاز المشاريع الوثائقية. المدخل الأساسي لإنتاج المشروع الوثائقي يكمن في الإنصات والاستماع إلى المحيط الذي يعيش فيه المصور؛ إذ يُعَدّ التصوير الوثائقي وسيلة تتيح له تفسير رؤيته للمجتمع[24].

يشدد مهدي مريوش على أن "أهم شيء في هذه المرحلة هو معرفة سياق المشروع وتحديد القضية التي يجري تناولها؛ إذ نسعى إلى سرد القصص والتعبير عمّا نعيشه ونشعر به مع الناس. نبدأ أولًا بالفكرة، ثم تأتي مرحلة إجراء البحوث والتواصل مع المتخصصين لوضع خريطة طريق تمثل نحو 10% من المشروع، ومع ذلك فإن هذه الخريطة قد تتغير بمجرد النزول إلى الميدان. من المهم أيضًا توظيف الأحاسيس في أثناء العمل، إلى جانب بناء الثقة"[25].

ترى المصورة سمر أبو العوف أن التعايش مع الناس والتقرب منهم من المداخل المهمة لفهم كيفية التقاط الصور وتحديد مدى تقدم المشروع وما إذا كان سيتم إنهاؤه أم لا. بالنسبة لها، يعتمد الأمر على الألفة بين المصور وأصحاب القصص، وكذلك على أساليب السرد التي يتبعها المصور والشكل الذي ستُنشر به القصة. تقول سمر: "أول شيء أفعله هو النظر إلى فكرة المشروع الذي سأعمل عليه، هل هي مهمة أم لا؟ هل تحتاج فعلاً لأن تكون قصة؟ من الضروري دراسة موضوع القصة جيدًا وفهم الأشخاص الذين سيكونون محور القصة. بعد ذلك، أتعرف إليهم وأوضح لهم طبيعة القصة التي سأصورها ولماذا، وأتحدث معهم لفهم جوانب القصة كافة من خلال معايشتهم، ومن هنا يتضح لي كيف سأرتب جوانبها"[26].

البحث والتخطيط للمشروع الوثائقي

تحكي سمر أبو العوف عن تجربتها في التخطيط لإنجاز مشروعها الوثائقي عن انقطاع الكهرباء في غزة، فتقول: "أبدأ من تسجيل التفاصيل لفهم كيف سيكون السيناريو؛ لأن من الضروري أن أعرف كيفية التحرك في الميدان، والأماكن التي يعمل فيها الناس، والأشياء التي يحبونها، وأين سأصوّرهم. كذلك يجب أن أعرف الأوقات التي يوجدون فيها في تلك الأماكن، وما إذا كان التصوير يتعلق بشخص واحد أم بمجموعة من الأشخاص، أو ما إذا كانت القصة تتعلق بموضوع أوسع مثل انقطاع الكهرباء في غزة".

توضح سمر أن هذا المشروع استغرق منها وقتًا طويلًا في الإعداد؛ إذ تطلب الأمر دخول أزقة المخيمات في غزة لفهم كيف يتحرك الناس في ظل غياب الكهرباء. وبعد ذلك، توسع الموضوع من المخيمات إلى المدينة،

---

[23] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي حسن الصياد، بتاريخ 09 مارس 2023.

[24] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي فتحي صحراوي، بتاريخ 04 مارس 2023.

[25] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي مهدي مريوش، بتاريخ 02 مارس 2023.

[26] مقابلة الباحث مع المصورة الوثائقية سمر أبو العوف، بتاريخ 04 مارس 2023.

لتـغوص سمر فـي حيـاة الأشخـاص الذين تـعرضوا لتشوهـات بسبب انقطـاع الكهربـاء[27].

ومن أجل إجراء البحث والتخطيط الجيد لـلمشروع الوثائقـي، يوصـي المصور الوثائقـي حسن الصيـاد باتبـاع الخطوات التاليـة:

• البحث عن قصـة فريدة وقـادرة علـى لـفت انتبـاه الجمـهور إليهـا.

• ضرورة إجراء بحث موسـع ومعمـق فـي الموضوع والإحاطـة بمقوماتـه كافـة.

• التواصل الميدانـي والزيـارات الميدانيـة لتجميـع المعطيـات وترتيب عنـاصر القصـة.

• ترتيب الجوانب التقنيـة وإعداد المـعدات اللازمـة وفريـق الـعمل.

• دراسـة المحيط وأثره علـى مكونـات القصـة والسـعي لإدراجه.

• اعتمـاد مقاربـة يمكن من خلالها تجسيد صورة مرئية فـي ذهن المتلقـي تتحول إلـى قصة مروية[28].

[27] مقابلة الباحث مع المصورة الوثائقية سمر أبو العوف، بتاريخ 04 مارس 2023.

[28] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي حسن الصياد، بتاريخ 09 مارس 2023.

إنتاج المشروع الوثائقي في الميدان

بعد كتابة الفكرة واختيار زاوية معالجتها، واستكمال خطوات البحث والتخطيط للمشروع الوثائقي جميعها، يأتي وقت التصوير في الميدان. في هذه المرحلة، يوصي المصور الوثائقي سعيد أوبراييم المصورين الوثائقيين، استنادًا إلى تجربته الطويلة في هذا المجال، بضرورة أخذ حالات الطوارئ التي قد تحدث في الميدان بالحسبان، ويشدد على أهمية التحلي بالمرونة؛ إذ قد تواجههم أمور مفاجئة وظروف غير متوقعة.

ويمكن إنجاز المشروع الوثائقي في الميدان من خلال توظيف مختلف أنواع اللقطات مع التنويع في الزوايا وتوظيف معدات ذات جودة مناسبة، وفق الخطوات التالية التي يتبعها المصور سعيد أوبراييم في مشاريعه الوثائقية[29]:

لقطة عامة للفضاء الذي تجري فيه القصة

كل لقطة تحمل رسالة، وهدف هذه اللقطة هو وضع القصة في سياقها بوصفها مقدمة للمشروع الوثائقي. يتيح ذلك للمتلقي والمشاهد الإحساس بالمكان والتعرف إلى جغرافية المنطقة قبل الدخول في موضوع المشروع الوثائقي.

[29] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي سعيد أوبراييم، بتاريخ 23 أكتوبر 2023.

اللقطة المتوسطة

فـي هذه اللقطـة، يدخل المصور الوثائقـي إلـى ميدان القصـة تدريجيًّـا، ويبدأ تسـليط الضوء علـى موضوع المشروع الوثائقـي؛ إذ إن هذه اللقطـة تجـعل من ميدان القصـة مجـالًا مرئيًّـا للمشـاهد (زقـاق– مسجد– منزل- أشخـاص...).

لقطات البورتريه

لا بد من حضور البورتريه في المشروع الوثائقي؛ لأن قصة المشروع الوثائقي تنبني على الأشخاص، ولا سيما إذا كان موضوع المشروع يتمحور حول القضايا الإنسانية والإثنوغرافية والأنثروبولوجية، ولأن البورتريه يعدّ نواة المشروع الوثائقي. يفضل التقاط صور متنوعة بزوايا مختلفة، مع عدم إغفال التقاط المشاعر والأحاسيس والحركات التلقائية للشخص.

لقطات التفاصيل المشوقة

من المـهم فـي أثنـاء التصوير بـالميدان التقـاط التفـاصيل المشوقـة الموجودة فـي الوسط الذي تدور فيـه القصـة، ثم الرجوع إلــى الموضوع الأساســي لـلمشروع مرة أخرى (خيوط عنكبوت فــي سـقف المنزل- خـاتم امرأة- اليدان- اللبـاس- الحُلـيّ بصفـة عامـة– الوشم علـى اليد أو الوجـه)، هذه التفـاصيل مهمـة فـي المشروع الوثائقـي، ويمكن أن تسـاعد فـي فـهم الموضوع وأن تضفـي عليـه طابعًـا خاصًّـا.

لقطات الفعل والكيف

هذه اللقطـات مهمـة جدًّا فـي المشروع الوثائقـي وتضفـي عليـه نوعًـا من الحيويـة؛ إذ تُظـهر الشخصَ الذي نصوره فـي المكان الذي يـعيش فيـه أو يـعمل وهو يزاول نشـاطه اليومـي المعتـاد. هذه اللقطـات تركز علـى الفـعل حين يؤدي الشخص فـعلًا معينًـا، وتركّز أيضًـا علـى الطريقـة أو الكيفيـة التـي يمـارس بهـا شيئًـا مـا (الـعمل- الأكل– اللبـاس- الكتابـة– الطبـخ ...).

الصورة والنص.. أي علاقة؟

توجهنا إلى المصورين الذين أجرينا معهم المقابلات بهذا السؤال: هل يمكن للصورة الوثائقية أن تتحدث عن نفسها أم يجب أن نرفقها بتعليق نصّيّ حتى يُفهم سياقها؟ وأجاب المصور حسن الصياد بأن "الأمر يتوقف على مدى قدرة المصور على ترجمة ما يراه ويحس به بصدق باستخدام التقنية اللازمة والجوانب الأستطيقية (الجمالية) وقوة الرسالة إلى الجمهور المتلقي، ولا بأس من وضع عنوان للقصة وذكر المكان والتاريخ لترك المجال للمتلقين على اختلاف حيثياتهم للقراءة والتحليل والانتقاد"[30].

وبالنسبة للمصور عمار عبد ربه، فيرى أنه "في معظم الأحيان، يفضل إرفاق الصورة الوثائقية بتعليق نصي يوضح الحدث أو الوضع الذي التُقِطت فيه الصورة، حتى تُفهَم على نحو أفضل وتوثَّق بصورة صحيحة. ويمكن للتعليق النصي أن يضيف معلومات أو توضيحات بشأن الحدث أو الوضع الذي يُوثّق بالصورة، ما يساعد على فهم السياق على نحو أكبر"[31].

أما المصور مهدي مريوش، فأجاب عن سؤالنا بالقول: "أنا شخصيًّا أحاول الإجابة عن الأسئلة التي من المحتمل أن يطرحها الجمهور عند مشاهدة الصور، ولكن أعتقد أن النص مهم جدًّا ومكمل للصورة وبه نتفادى مسألة الخلط إذا وضعنا تلك الصورة في بلاد أخرى، ومن ثَمّ فالنص مهم مع الصورة. ورغم أن هذه الفكرة لم تكن لدي منذ البداية، فإنني بعد التجربة عرفت أنّ من المهم جدًّا للمصور الوثائقي أن يمتلك حِسًّا لغويًّا ليعرف كيف يصف الصورة بنص مختصر يتضمن الإطار الزماني والمكاني والعناصر الموجودة في الصورة"[32].

المعالجة البصرية ونشر المشروع

بعد نهاية مرحلة إنتاج المشروع في الميدان، يأتي وقت تحرير الصور ومعالجتها بصريًّا ونشرها للجمهور، وفي هذه المرحلة ينصح المصور الوثائقي سعيد أوبراييم باتباع الخطوات التالية من خلال تجربته الميدانية[33]:

- مشاهدة كل الصور التي صُوّرت في المشروع الوثائقي.

- إزالة الصور التي تحمل تكرارًا في العناصر التي تبرزها؛ أي توصل الرسالة ذاتها.

- استبعاد الصور التي تحوي أخطاء تقنية (خطأ في الإضاءة– ضبابية- اهتزاز).

- استبعاد الصور الخارجة عن موضوع المشروع الوثائقي.

- تحديد الصور التي ستكون في بداية المشروع.

- الحسم في الصور المتشابهة التي تقدم رسالة قوية للجمهور.

- تحديد الصور المكمِّلة لبعضها.

- إدراج الصور التي تنقل الواقع بكل صدق وأمانة من حيث الزمان والمكان والتاريخ.

- مراعاة الترابط والتماسك بين عناصر القصة الوثائقية.

ترتيب صور المشروع بطرق مختلفة واختيار الأفضل منها.

- إدراج بعض الصور التي فيها عناصر تشويقية مهمة لفهم سياق المشروع الوثائقي على نحو أفضل.

---

[30] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي حسن الصياد، بتاريخ 09 مارس 2023.

[31] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

[32] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي مهدي مريوش، بتاريخ 02 مارس 2023.

[33] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي سعيد أوبراييم، بتاريخ 23 أكتوبر 2023.

وبخصوص تحرير الصور، ينصح المصور الوثائقي محمد قطب بأن "تظلّ الصورة على طبيعتها، وأي تعديلات يجريها المصور الوثائقي على الصورة فيما يتعلق بالقص لتحسين تكوين الصورة أو تصحيح الألوان أو إضافة رسومات ونصوص أو فلترات، يجب ألا تغيّر من جوهر الصورة الوثائقية وطبيعتها".

كذلك يرى أن توظيف برامج تحرير الصور (الفوتوشوب أو اللايث روم) يجب أن يكون في حدود ضيقة جدًّا لتفادي التلاعب بالصور سواء بالحذف أو بالإضافة، وفي حالة إضافة شيء معين على الصور فيجب على المصور الإشارة إليه في النص المرفق بالصور للحفاظ على مصداقية الصور ولتفادي التلاعب بالجمهور[34].

بعد إعداد المشروع الوثائقي وبنائه بصيغته النهائية، تأتي مرحلة النشر؛ وهي مرحلة تتطلب جهدًا ووقتًا، وهنا لا بد للمصور الوثائقي من أن يحدد الطريقة التي يريد بها نشر مشروعه الوثائقي ليطلع عليه الجمهور.

ووفق تجربة المصور الوثائقي سعيد أوبراييم، يمكن للمصور الوثائقي نشر المشروع الوثائقي من خلال الوسائل التالية[35]:

- الكتب المصورة أو الدلائل المصورة.
- المجلات.
- الجرائد الإلكترونية.
- الجرائد الورقية.
- المواقع الإلكترونية الشخصية للمصورين.
- شبكات التواصل الاجتماعي.
- المعارض الفردية والجماعية.
- المؤسسات التعليمية.

الفصل الثالث: سرد القصة الوثائقية

بنية القصة الوثائقية

بعد اكتمال التصوير والانتهاء من تحرير الصور ومعالجتها، تبدأ مرحلة تحديد بنية القصة الوثائقية للمشروع. وفقًا للمقابلات التي أجراها الباحث مع المصورين الوثائقيين، تتفاوت طرق تحديد بنية القصة الوثائقية من مصور إلى آخر؛ وذلك بناءً على طبيعة المشروع الوثائقي والموضوع المُقدّم.

تشير تجربة المصورة الوثائقية الفلسطينية سمر أبو العوف إلى أن "بنية القصة في المشروع الوثائقي الفوتوغرافي ليس لها شكل محدد، بل ترتبط بأهمية القصة التي ستُصوّر من وجهة نظر المصور وتقديره لأهميتها للمجتمع. ينبغي أن تكشف القصة عن جوانب جديدة غير معروفة للمجتمع تجعل من المهم إبرازها. في البداية، لا يمكن تحديد بنية المشروع وكيف ستتشكل؛ إذ يجري وضع سيناريو وخطوات معينة للتنفيذ، ولكن أحيانًا، قد يتجه المشروع في منحى آخر في أثناء التصوير، وقد تظهر في القصة عناصر غير معروفة للمصور، ولا سيما في المشاريع الوثائقية الطويلة التي تمتد سنوات؛ إذ ستطرأ تغييرات في كل فترة.

وترى أبو العوف أيضًا أن تحديد بنية القصة للمشروع الوثائقي هو مهمة شاقة؛ إذ إن ترتيب الصور في شكلها النهائي واختيار العناصر المهمة في القصة ليست بمهمة سهلة، ويؤثر ذلك على كيفية استيعاب الجمهور للقصة؛ لذا، تلجأ أحيانًا إلى استشارة بعض الزملاء.

ويتفق المصور عمار عبد ربه مع هذا الرأي، فيرى أن "بنية القصة في المشروع الوثائقي الفوتوغرافي تتشكل

---

[34] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي محمد قطب، بتاريخ 25 فبراير 2023.

[35] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي سعيد أوبراييم، بتاريخ 23 أكتوبر 2023.

من خلال تنظيم الموضوع الرئيس والأحداث المتعلقة به بطريقة مميزة ومثيرة لاهتمام المشاهدين. يتطلب ذلك كتابة سيناريو واضح للقصة الوثائقية المصورة، يشمل ملخصًا للأحداث والمشاهد واللقطات المضمّنة، وغالبًا ما يسمح هذا السيناريو المكتوب بالحصول على تمويل أو جزء منه لاستكمال المشروع[36].

وفقًا لتجربة المصور فتحي صحراوي، تُبنى القصة في المشروع الوثائقي عبر مراحل متعددة، ولا توجد قواعد ثابتة يمكن اتباعها في هذا المجال. ومع ذلك، هناك عوامل تتحكم في بناء القصة الوثائقية وسردها. يشير فتحي إلى أنه يحاول دائمًا بناء كل مشروع وثائقي بطريقة مختلفة، بعيدًا عن الطرق الكلاسيكية، ومن هذه العوامل ما يلي[37]:

- التعرف إلى البنية التي ستصور بها مشروعك.

- بعد التصوير في الميدان، أجرِ بحثًا جديدًا في موضوع المشروع للنظر إليه من زاوية جديدة.

- تحدث مع الناس قبل بداية التصوير.

- بسّط الأسئلة التي ستوجهها إلى أصحاب القصص.

ابحث في المكتبات والمصادر المفتوحة.

- استعِن بالمختصين من أجل بناء مشروعك الوثائقي.

- اعتنِ بتكوين الصورة وعدم المبالغة في الديكور.

- احرص على مراعاة مشاعر الناس.

وعلى العموم، فإن قدرًا كبيرًا من تحديد بنية القصة في المشاريع الوثائقية الفوتوغرافية إنما هو حدسي مرتبط بأحاسيس المصور الوثائقي وخبرته المتأتية من معايشته للموضوع الذي يوثقه وللأشخاص الذين يصورهم في الميدان.

الأساليب والجماليات

أساليب التصوير الوثائقي الفوتوغرافي

هناك عدة أساليب يتبعها المصورون الوثائقيون في إنتاج مشاريعهم في الميدان، وتختلف هذه الأساليب من مشروع وثائقي إلى آخر وفقًا لطبيعة القصة واختيارات المصور. ومع ذلك، ينبغي على المصور الوثائقي تحديد الأسلوب الذي سيتبعه قبل بدء إنتاج المشروع. في هذا السياق، يشير المصور الوثائقي محمد قطب إلى مجموعة من الأساليب التي يمكن اتباعها[38]:

- الأسلوب الذي يعتمد على الأبيض والأسود.

- الأسلوب (الشخصي) الذي ينطلق من شخصية المصور أو يركز على شخصية أو شخصيات لها علاقة بموضوع المشروع الوثائقي.

- الأسلوب الذي يعتمد على الإضاءة.

- الأسلوب الفني الذي يركز على الجوانب الجمالية والفنية في التصوير.

- الأسلوب الذي يعتمد على الألوان.

- الأسلوب الذي يعتمد على الظل والضوء.

- الأسلوب الذي يعتمد على البورتيهات.

- الأسلوب الذي يعتمد على اللاندسكايب مع صور البورتريه.

- الأسلوب الذي يجمع بين هذه الأساليب متداخلةً.

---

[36] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

[37] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي فتحي صحراوي، بتاريخ 04 مارس 2023.

[38] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي محمد قطب، بتاريخ 25 فبراير 2023.

الجماليات في التصوير الوثائقي الفوتوغرافي

يـهدف التصوير الوثائقـي الفوتوغرافـي إلـى توثيـق الواقع بصدق ودقـة، إلا أن ذلك لا يعنـي أن الصورة الوثائقيـة تخـلو من الجماليـات الفنيـة؛ فـعند التقـاط صورة وثائقيـة، يجب علـى المصور الاهتمـام بعدد من العنـاصر الجمالية، وأهمهـا وضوح الموضوع؛ فـالموضوع الواضح والمحدد جيّدًا يـعزز من قدرة المشـاهد علـى فـهم الرسـالة أو الروايـة المطروحـة واستيعابهـا بفاعليـة.

ينبغـي مراعـاة الإضـاءة وضبطهـا بصورة تتنـاسب مـع الموضوع، مـع الاهتمـام بتكوين الصورة أو "تحريرهـا" لتبدو متوازنـة وجذابـة بصريًّـا، وكذلك تنظيم العنـاصر والخلفيـة والتفـاصيل الدقيقـة داخل الإطـار. علاوة علـى ذلك، يجب التقـاط الصور بحسـاسية وعاطفـة، مع التركيز علـى إبراز التفـاصيل التـي تـعكس الشـعور الإنسـاني فـي المشـهد، بـهدف نـقل هذه المشـاعر بوضوح إلـى المتلقـي. كذلك ينبغـي احترام رسـالة الموضوع المطروح وتـقدير اللحظـة المناسبـة لالتقـاط الصور، لتحقيـق أقصـى تـأثير بصري ومـعنوي[39].

المعدات والتوظيف المناسب

المـعدات من العنـاصر الأسـاسية التـي تسـهم فـي نجـاح إنتـاج المشـاريع الوثائقيـة، إلا أن مسـألة التعـامل مـع مـعدات التصوير وتوظيفهـا فـي الميدان تشكل تحديـات وإشكالات لدى عدد من المصورين الوثائـقيين.

تُشبَّـه المـعدات بالنسبـة لـلمصور بقلم الكاتب؛ فهـي مجرد أداة أو وسيلـة لكتابـة الصور ورؤيـة القصـة، ولا ينبغـي أن تُعطـى أهميـة أكبر ممـا تستحـق. يجب أن تُستخدم المـعدات علـى نحو لا يجعلهـا كبيرة أو مزعجـة لتجنب التـأثير علـى المنـاخ العـام أو علـى الأشخـاص بوجودهـا، بل ينبغـي توظيفهـا بطريقـة ملائمـة لتحقيـق وظيفتهـا بمثاليـة.

هنـاك دائمًـا معضلـة تواجـه بـعض المشـاريع الوثائقيـة؛ فعندمـا تُتنـاوَل موضوعـات قاسيـة مثل الحروب والمعانـاة والظـلم والفـقر والبؤس، يبرز تحدٍّ فـي كيفية تقديم محتوى جميل يشجـع المشـاهد علـى متابعتـه بدلًا من أن ينـفر منه. وفـي الوقت نفسـه، كلمـا كان المحتوى أكثر جاذبيـة، كان أكثر ابتعـادًا عن الحقيقـة القاسيـة لـهذه الموضوعـات. هذه التسـاؤلات تُطرح أمـام كل من يـعمل فـي إنتـاج الأفلام الوثائقيـة، ولا توجد إجابـة واحدة شـاملة لهـا[40].

[39] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

[40] المرجع نفسه.

الفصل الرابع: مشاريع وثائقية عربية: تجارب من الميدان

خلال إعداد هذه الورقة، تواصل الباحث مع مجموعة واسعة من المصورين الوثائقيين في العالم العربي لاستعراض تجاربهم. وقد أجرى مقابلات معمقة مع عدد من هؤلاء المصورين في كل من مصر والجزائر والمغرب وفلسطين وسوريا وقطر، بهدف تسليط الضوء على مشاريعهم في مجال التصوير الوثائقي الفوتوغرافي:

معهد الجزيرة للإعلام

مشروع "100صورة 100 قصة"

يُسلط مشروع "قصّة" الوثائقي الفوتوغرافي الذي أطلقه معهد الجزيرة للإعلام الضوء على قصص الناس وتجاربهم الإنسانية من خلال سرد إبداعي وصور تعكس عمق واقعهم. وقد استمر هذا المشروع مدة عامين في أكثر من 75 دولة، وتحرر من الأساليب والتقاليد الصحفية، معتمدًا على السرد المباشر من دون إدراج آراء الخبراء أو أي عناصر قد تعوق ظهور القصة.

تستند رؤية مشروع "قصّة" إلى الخروج من وطأة الأخبار اليومية وأحداث الشأن الجاري؛ إذ يهدف إلى تناول قصص الإنسان والمكان التي تعكس تنوع العالم الإنساني والتاريخي والجغرافي. من "قصّة تودا" التي ترقص مع "أحواش" في قلعة مكونة المغربية، إلى "طبيبة الأمل الأخير" في كينيا، وصولًا إلى "تيجانيق" أو الثور الأبيض السوداني، تتجول منصة "قصّة" في الشوارع والقرى والمدن، مُصغيةً إلى الناس ومُسلطةً الضوء على قصصهم وتجاربهم العميقة من خلال سرد مبدع وعميق، مدعوم بصور تعكس بعمق واقعهم.

تنوعت أساليب السرد في مشروع "قصّة" واستخدامات ضميرَي المتكلم والغائب، بهدف تحرير القصص من الطرق الصحفية التقليدية، من دون التقليل من أهمية المحتوى وثراء معلوماته. الحقائق في "قصّة" لا تُروى مباشرة ولا تخضع لآراء الخبراء، بل تظل حرة، ومركز السرد فيها هو الصورة ذاتها. تتكون كل قصة من صورة واحدة ونص قصير يتضمن معلومات مختزلة في نحو 150 كلمة، تتناسب مع ذوق القارئ "العجول"، وغنية بالتشويق والحكايات القريبة والبعيدة. هذا يعزز معنى الرحلة والطواف والتجوال، ويجعلها منصة فريدة من نوعها[41].

[41] مجلة الصحافة، الجزيرة للإعلام يطلق منصة " قصة"، 4 أبريل 2018، https://institute.aljazeera.net/ar/ajr/article/619

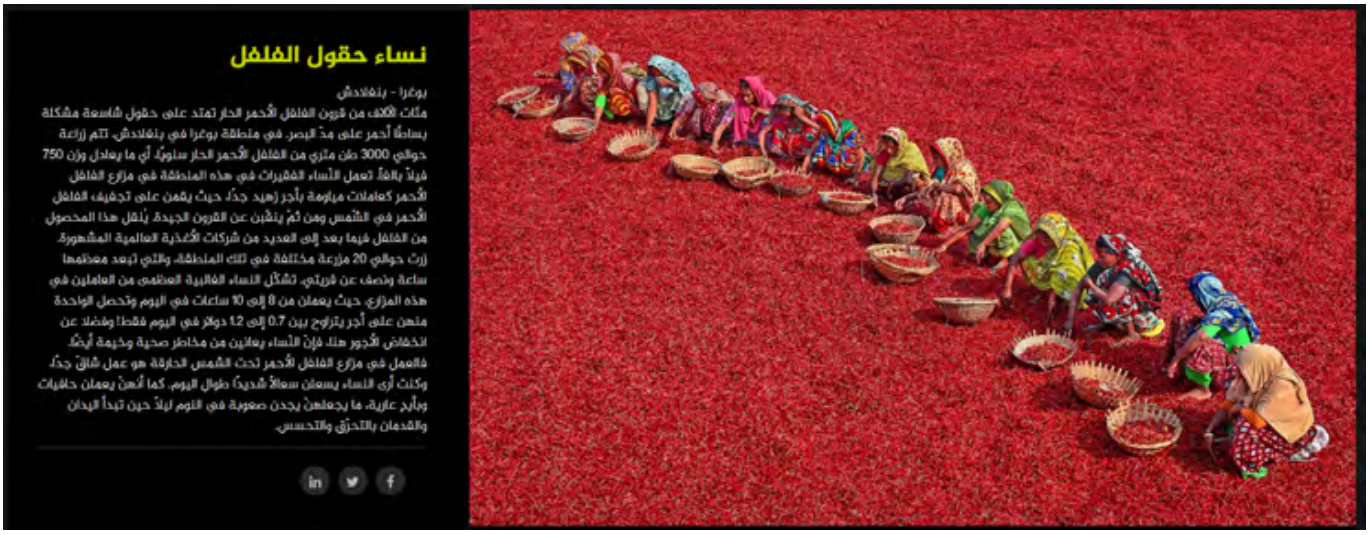

نساء حقول الفلفل

بوغرا - بنغلادش

مئات الآلاف من قرون الفلفل الأحمر الحار تمتد على حقول شاسعة مشكلة بساطاً أحمر على مدّ البصر. في منطقة بوغرا في بنغلادش. تتم زراعة حوالي 3000 طن متري من الفلفل الأحمر الحار سنوياً، أي ما يعادل وزن 750 فيلاً بالغاً. تعمل النساء الفقيرات في هذه المنطقة في مزارع الفلفل الأحمر كعاملات مياومة بأجر زهيد جداً، حيث يقمن على تجفيف الفلفل الأحمر في الشمس ومن ثمّ ينقين عن القرون الجيدة. يُنقل هذا المحصول من الفلفل فيما بعد إلى العديد من شركات الأغذية العالمية المشهورة. زرت حوالي 20 مزرعة مختلفة في تلك المنطقة، والتي تبعد معظمها ساعة ونصف عن قريتي. تشكّل النساء الغالبية العظمى من العاملين في هذه المزارع، حيث يعملن من 8 إلى 10 ساعات في اليوم وتحصل الواحدة منهن على أجر يتراوح بين 0.7 إلى 1.2 دولار في اليوم فقط! وفضلاً عن انخفاض الأجور هنا، فإنّ النساء يعانين من مخاطر صحية وخيمة أيضاً. فالعمل في مزارع الفلفل الأحمر تحت الشمس الحارقة هو عمل شاقّ جداً. وكنت أرى النساء يسعلن سعالاً شديداً طوال اليوم. كما أنهنّ يعملن حافيات وبأيدٍ عارية، ما يجعلهنّ يجدن صعوبة في النوم ليلاً حين تبدأ اليدان والقدمان بالتحرّق والتحسس.

طوابع من أجل فلسطين

كان منزل عائلة شفيق طالب ملاصقاً لمخيم اللاجئين الفلسطينيين "عين الحلوة" في صيدا بالجنوب اللبناني. وكانت عائلته قد تقاسمت العيش والنضال مع جيرانهم الفلسطينيين الذين لجأوا إلى لبنان بعد نكبة عام 1948. عام 1963، غادر طالب صيدا متوجهاً نحو الكويت للبحث عن عمل. هناك، عمل بتجارة السيارات وتوفّرت له بحبوحة مالية سمحت له بإنعاش هوايته القديمة في جمع الطوابع، التي كان قد أجّل العمل عليها لأسباب مادية. اقتنى طوابع كافة الدول خاصة لبنان، وحرص على جمع تلك المنوّعة باسم فلسطين والصادرة عن مصر والعراق والأردن. والطوابع الفلسطينية ذاتها، ليؤكد انتماءه لفلسطين وأنّها "قضية قوميّة لا يمكن التخلي عنها".

جال طالب بطوابعه معارض دولية، حاملاً معه أيضاً لوحات كان قد جمعها سابقاً تحكي عن القدس ومجزرة دير ياسين، ولاحق أطياف شغفه بانتسابه لأكاديميات وتوأم دولية تختص بجمع الطوابع، كان آخرها انتسابه للنادي الدولي للطوابع في عام 2010.

في مسيرته تلك، ساعدته ابنته هدى وأصدرا معاً كتاباً بعنوان "لبنان في طوابعه" الذي أصبح وثيقة تاريخية وعلمية هامّة للباحثين، يعد رصده أحوال لبنان بين عامي 1924-2001.

مشروع "الترحال أسلوب حياة"

يتناول مشروع المصور الصحفي المغربي حسن الصياد حياة مجتمع رُحّل الصحراء، مسلطًا الضوء على قدرتهم الفريدة على التكيف مع قساوة الظروف الطبيعية التي تميز البيئة الصحراوية الواسعة. يتميز هذا المجتمع بالهدوء والاستقلالية والبساطة التي انعكست على نمط حياتهم وأساليب عيشهم.

يوثق المشروع عادات مجتمع الرحّل وتقاليده، بما في ذلك تفاصيل اللباس، واللغة، والموروث الثقافي، مع إبراز الدور المحوري الذي تؤديه المرأة في هذا المجتمع من حيث التدبير الأسري وتربية الأجيال. كذلك يعكس المشروع طبيعة الترحال المستمرة التي تميز مجتمع الرحّل، وما يرافقها من مغامرات لاستكشاف آفاق جديدة والتفاعل مع ثقافات متنوعة.

ويركز المشروع أيضًا على قدرة هذا المجتمع على اعتماد أساليب تمويل ذاتية وإدارة الموارد بكفاءة بعيدًا عن التبذير؛ إذ ينظر الرحّل إلى الترحال بوصفه فلسفة حياة تتجاوز كونه مجرد تنقل جسدي، ليصبح تجربة وجدانية تعزز اكتشاف الذات والنمو الشخصي على الرغم من التحديات.

يتناول المصور في مشروعه الجوانب الثقافية والاجتماعية، ومنها روح التكافل التي تتجلى في توزيع المهام اليومية، مثل الرعي، وبناء الخيام، وتحضير الطعام، ما يعزز الترابط الأسري والقبلي. كذلك يُبرز المشروع اعتماد نظام اقتصادي يقوم أساسًا على تربية الماشية وممارسة التجارة التقليدية عبر تبادل المنتجات الحيوانية مع المجتمعات المستقرة.

من خلال هذا المشروع، يوثق الصياد العلاقة العميقة بين الرحّل والطبيعة؛ إذ تظهر قدرتهم على قراءة التغيرات المناخية وفهمها بفضل معارف تقليدية متوارثة. كذلك يبرز حفاظهم على التراث الثقافي الغني عبر القصص، والأشعار، والحكم، التي تُعد جزءًا من التراث الثقافي غير المادي المعترف به في المغرب، الذي يمتلك امتدادًا تاريخيًّا وثقافيًّا يشمل أفريقيا والخليج.

استلـهم الصيـاد من رحلتـه هذه الـقيم التـي يمثلهـا الترحـال، مثل الحريـة، والـقدرة علـى التعـلم، وقوة التكيف مـع المتـغيرات. ويظـهر المشروع كيف يُمكّن الترحـال أفراد هذا المجتمـع من مواجهـة المجـهول، وتطوير الاعتمـاد علـى الذات، وإيجـاد حـلول مبتكرة لـلمشكلات ضمن بيئاتـهم المتـغيرة. كذلك يـعكس الترحـال أهميـة الـقيم غير الماديـة، مثل العلاقـات الإنسـانية، والتجـارب الحياتيـة، والذكريـات، فـي حيـاة الرحّل.

يمثل الترحـال، فـي مجملـه، نمط حيـاة متكاملًا يجمـع بين الاقتصـاد، والثقافـة، والعلاقـات الاجتماعيـة، علـى نحو أسـهم فـي تشكيل هويـة مجتمعـات الرحّل عبر قرون.

مشروع " كأس شاي في التبت.. من الأطلس الكبير إلى جبال الهيملايا"

ينطلق المصور الوثائقي المغربي سعيد أوبراييم في مشروعه من رؤية تتداخل فيها الأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، والإثنولوجيا، لبحث أوجه التشابه والاختلاف بين سكان منطقة "إميلشيل" الواقعة بين جبال الأطلس الكبير الشرقي في المغرب، وسكان هضبة التبت، المعروفة بسقف العالم بارتفاع يبلغ 4900 متر. ومن خلال هذا المشروع، الذي أصدره في كتاب بعنوان "كأس شاي في التبت: من جبال الأطلس الكبير إلى جبال الهيمالايا"، نظم أوبراييم معرضًا خاصًا لتوثيق تجربته.

رأى أوبراييم في مشروعه مغامرة روحية تتجاوز الاكتشاف الجغرافي؛ إذ لاحظ أن في كل شيء في التبت قيمة مقدسة، من الأنهار والبحيرات، إلى الجبال والمسارات، وحتى الأفق اللامتناهي.

تمثل الرحلة إلى هضبة التبت تحديًا كبيرًا نظرًا لصعوبة الوصول إلى هذه المنطقة الملقبة بـ"المدينة المحرمة"؛ لذلك استلهم المصور خطى المستكشفة الشهيرة ألكسندرا ديفيد نيل، وبدأ رحلته من مدينة "شينينغ"، عاصمة مقاطعة "تشينغهاي"، عبر قطار "شينينغ/ لاسّا"، الذي يُعد أعلى مسار سكك حديدية في العالم؛ إذ يبلغ ارتفاعه 5075 مترًا عن مستوى سطح البحر. استغرقت الرحلة 23 ساعة ليصل إلى عاصمة التبت، عبر مسار يتقاطع مع القمم الثلجية وهضاب آسيا، حيث تتدفق من هناك أكبر الأنهار الآسيوية.

ينظر سعيد أوبراييم إلى هذا المشروع بوصفه دعوة إلى استكشاف التراث الثقافي والروحي الفريد للتبت؛ تلك المنطقة التي تلتقي فيها الأرض بالسماء، ويصفها بأنها من أكثر المناطق غموضًا وسحرًا.

جمع المشروع بين فن التصوير الوثائقي وأدب الرحلة، مبرزًا أهمية الصورة بوصفها وسيلة للتوثيق وتعزيز التفاهم بين الثقافات. خلال رحلته، لم يكتفِ أوبراييم بتوثيق المناظر الطبيعية والحياة اليومية، بل حرص على إحضار لمسة من التراث المغربي عبر شرب الشاي المغربي التقليدي، باستخدام البراد المغربي، على قمم العالم.

وعن تجربتـه، قـال أوبراييم: "من الصـعب أن أشرح رحلتـي ولمـاذا اخترت السـفر. لم أخطط للرحلـة، بل هـي التـي قادتنـي. لم أشـاهد التبت فحسب، بل شـعرت بهـا وسـأحملها دائمًـا فـي داخلـي. إنهـا دعوة لاكتشـاف التراث الروحـي لهضبـة التبت، بكل غموضهـا وسحرهـا وجاذبيتهـا."

مشروع "قبس من الجحيم"

يعالـج مشروع المصورة الصحفيـة الوثائقيـة الفلسطينيـة سمر أبو الـعوف معانـاة سكان غزة مـع الانقطـاع المتكرر للتيـار الكهربائـي الذي لا يدوم 24 سـاعة؛ إذ يـعم الظلام أرجـاء القطـاع المحـاصر من طرف الاحتلال الإسرائيلـي، علـى نحو 2.5 مـليون فلسطينـي يرغبون فـي النجـاة من حرب الظلام هذه.

ترزح غزة تحت وطـأة الحصـار منذ مـا يزيد علـى أربعـة عشر عامًـا، ويعانـي سكان القطـاع تبعـات الحصـار المتواصل علـى أوجـه الحيـاة كافـة. يركّز مشروع "قبس من جحيم" علـى واحدٍ من هذه الأوجـه وهو انقطـاع التيـار الكهربائـي، الذي ارتُجلت فـي سبيلـه حـلولٌ عفويـة لقضـاء الحاجـات الأسـاسية اليوميـة. فـي كثير من الأحيـان تأتـي هذه الحـلول المُرتجلـة بدائيـةً وغير آمنـة، مـا يجعلهـا سببًـا لحوادث مأسـاوية.

توثِّق المصورة الفلسطينيـة سمر أبو الـعوف نضـال سكان قطـاع غزة ضد الظلام فـي مشروعهـا "قبس من الجحيم"؛ إذ تترك المدينـة الواقعـة تحت الحصـار وحـلول الإضـاءة المخصصـة لسكانهـا أثرًا غير عـادي ولا يمكن محوه: كأنـه الكـيُّ بالنـار علـى أجسـاد الأطفـال.

ويستقصي مشروع "قبس من الجحيم" لسمر أبو العوف بغزة قصص الأطفال الذين تعرضوا للإصابة والتشويه جرّاء الحلول العشوائية التي ارتُجلت لمعالجة انقطاع التيار الكهربائي وقضاء الحاجات الأساسية اليومية في غزة المحاصرة.

تقول سمر أبو العوف "مع كل انقطاع للتيار الكهربائي، أشعر كأنني أختنق، يباغتني على حين غرة، وأشعر بأن حقوقي قد انتُهكت، يصيبني الذعر كلما سمعت أن هناك نقصًا في الوقود، لدينا محطة واحدة فقط في غزة، وقد قصفها الإسرائيليون".

"أحيانًا أحاول جاهدة أن أتذكر آخر مرة حصلنا فيها على الكهرباء لـ24 ساعة كاملة من دون انقطاع، ولكنني أشعر أن هذه الفكرة لم تعد تطرأ على ذهني".

تحكي سمر أبو العوف عن معاناتها مع انقطاع الكهرباء المتكرر في غزة وتقول: "اضطررنا إلى تأجيل زفاف أختي وفقًا لجدول الكهرباء. كان عليّ أن أفكر مرتين قبل زيارة والديّ اللذين كانا يعيشان في الطابق السابع بأحد العقارات، ما زلت لا أستطيع أن أنسى اليوم الذي بقيت فيه عالقة داخل المصعد مع طفلي الرضيع. لا يمكن الوصول إلى المستشفيات بسهولة، والظلام يجعل التنقل من مكان إلى آخر صعبًا جدًّا. رائحة أنابيب الصرف الصحي كريهة، وفواتير المولدات تتراكم على الطاولة. الظلام يرعب أطفالنا، والحياة أصبحت شديدة الصعوبة، ومع ذلك تستمر أحلامنا. إلى متى سيستمر هذا الوضع؟".

مشروع "أحلام الأيادي الناعمة"

يستكشف مشروع "أحلام الأيـادي" لـلمصور الصحفـي الوثائقـي المصري محمد قطب، التعـقيدات اليوميـة لحيـاة الأسر الريفيـة الفـقيرة التـي تجبر بناتهـا علـى التضحيـة بتعليمـهن للاشتغـال فـي أكثر من عشرين مصنعًـا لـلطوب الأحمر علـى الشـاطئ الغربـي لـلنيل، ويحـاول فـهم إحسـاس هؤلاء الصـغيرات ومدى معرفتـهن بالعـالم من حولـهن وتقاطعاتـهن المتشـابكة مـع البيئـة المحيطـة بـهن، ويتتبـع هذا المشروع مسـار العائلـة الصـعب فـي أثنـاء بحثهـا عن مخرج من هذه الحلقـة.

يـقدم لنـا مشروع "أحلام الأيـادي" لـلمصور البصري محمد قطب لوحـة مأسـاوية عن حقيقـة حيـاة فتيـات صـغيرات يجبرهن الفـقر علـى التخلـي عن طفولتـهن وأحلامـهن؛ فَيَدْهَنّ أيديـهن الصـغيرة بطين الطوب الأحمر بحثًـا عن لقمـة الـعيش، فـي أعمـاق الريف المصري، حيث تتداخل الحاجـة مـع الحـلم، لتنسـج قصـة مؤلمـة من الـعمل الشـاق والتضحيـة.

يستلـهم المشروع اسمـه من حقيقـة مريرة؛ فكمـا يرمز الطوب الأحمر إلـى البنـاء والتـأسيس، فإنـه يرمز فـي الوقت ذاتـه إلـى سجن من صنـع الإنسـان يحبس فيـه هؤلاء الفتيـات. يتتبـع المشروع رحلـة هذه الفتيـات بدءًا من قرى الريف الفـقيرة وصولًا إلـى مصانـع الطوب الشـاقة، حيث يتـعرّضن لظروف عمل قاسيـة تفتـقر إلـى أدنـى معـايير السلامـة والصحـة.

يمزج المشروع بين الجمال الفني والرسالة الإنسانية؛ "إنه دعوة لإيقاظ الضمائر". يسعى محمد قطب من خلال عدسته إلى تسليط الضوء على قضية غالبًا ما تُهمّش: حرمان الفتيات من حقهن في التعليم وتحميلهن مسؤوليات لا تتناسب مع طفولتهن. يأمل المصور أن يكون هذا العمل "الشرارة التي تُشعل حوارًا مجتمعيًّا بشأن عمل الأطفال، وأن يدفع صانعي القرار إلى إيجاد حلول جذرية لهذه المأساة".

يعتمد المشروع على لغة التصوير الفوتوغرافي القوية لنقل معاناة هؤلاء الفتيات؛ إذ تلتقط عدسة الكاميرا نظراتهن الحزينة وأيديهن المتشققة ووجوههن المتعبة وأجسادهن الصغيرة التي تحمل أعباء تفوق سنهن. الصور لا تتحدث فقط عن الظروف المادية الصعبة، بل تعكس أيضًا الآثار النفسية العميقة التي تتركها هذه التجربة على هؤلاء الفتيات.

يـأمل المصور الوثائقـي محمد قطب أن يحظـى مشروع "أحلام الطوب الأحمر" بصدى واسـع محليًّـا ودوليًّـا، وأن يسـهم فـي فتـح حوار مجتمعـي بشـأن قضيـة عمل الأطفـال وحرمـان الفتيـات من التعـليم. كذلك يمكن أن يشكل هذا المشروع نقطـة انطلاق لمزيد من الأبحـاث والدراسـات المتعلقـة بـهذه القضيـة، وأن يدفـع صنـاع الـقرار إلـى اتخـاذ إجراءات فعالـة لحمايـة حـقوق هؤلاء الفتيـات.

مشروع "شظايا الحياة"

يركز المصور الصحفي الوثائقي المغربي مهدي مريوش في هذا المشروع الوثائقي الفوتوغرافي على استكشاف الحدود الفاصلة بين التصوير الصحفي والفن، ويسلط الضوء في هذا المشروع على عمال بمنجم حاسي بلال في إقليم جرادة بالمغرب، وهو أكبر منجم للفحم في شمال أفريقيا.

أُقفل منجم حاسي بلال في العام 2001 لأسباب اقتصاديّة، وسدّدت الشركة المشغّلة تعويضات لسبعة آلاف عامل في المنجم، إلا أنّ تلك التعويضات لم تكفِ لسدّ احتياجاتهم للعيش؛ لذا واصل بعض العمّال العمل في مناجمهم بصورة غير شرعيّة وفي ظروف غير إنسانية، مفضّلين البقاء والمخاطرة على الاضطرار إلى الهجرة ومغادرة موطنهم. حاليًّا تنتشر العمالة غير الشرعيّة في مناجم شرق المغرب، التي تعاني ظروفًا بالغة الصعوبة.

يرصد مهدي مريوش واقع المدينة العمالية لمناجم أهوالي- ميبلادن، التي كانت سابقًا من أكبر مكامن الرصاص في المغرب، ولكنها أصبحت مهجورة منذ نحو أربعين عامًا. يقع الموقع على هضبة جرداء، عند تقاطع سلاسل جبال الأطلس المتوسط والأطلس الشرقي العالي، على بُعد 25 كيلومترًا من مدينة ميدلت.

وعلى بعد نحو 400 كيلومتر من هذه المدينة المنسية، ينتقل مهدي مريوش عبر مشروعه الوثائقي "شظايا حياة" إلى مكان آخر مهجور؛ جرادة، أقدمِ موقع صناعي معدني في شمال أفريقيا، يقع على بُعد نحو 60 كيلومترًا جنوب مدينة وجدة، وقد هُجِر منذ نحو خمسة عشر عامًا. هنا الرصاص، وهناك الفحم، وبينهما قصة من الهجران والمقاومة، قصة عن الهشاشة والكرامة، وأيضًا قصة لقاء مع العمال الظلّيين الذين لا يملكون خيارًا سوى مواصلة استغلال هذه المناجم بصورة تقليدية.

مشروع "شظايا حياة" هو المشروع الوثائقي الفوتوغرافي الشخصي الأول لمهدي مريوش الذي ينفذه خارج إطار أي تكليف أو قيد صحفي. يتجاوز المشروع قيمته الجمالية وأهميته التوثيقية إلى أن يكون شاهدًا على وضع معين وتجربة معينة؛ فهو أيضًا شذرات من القرب الحسي مع العمال المتمردين، وظروف لقاءات تتسم أكثر بالمشاركة والتآزر بدلًا من اللحظات المسروقة العابرة.

تعبّر صور هؤلاء العمال السريين من خلال هذا المشروع عن تواضع المصور أمام هؤلاء الرجال، بينما تُبرز حضوره من خلال أصالة نظرته ودقتها؛ فهو لا يتبنى دور المتلصص أو المتفرج، بل يقدم رؤية غامرة لحياة هشة وقاسية، من دون أن يغرق في البؤس أو في الإخراج الموجّه؛ نظرته مباشرة لا مجال فيها للمساومة، سواء أركّزت على وجه أسود أم على مبنى مهجور، ولكنها تنبض دائمًا بالشعور والعاطفة ونوع من الرقة؛ رقة التعاطف الحنون، المحترم والمعجب الذي يربطه بهؤلاء المتمردين ضد الهجران، ويدفعه إلى العودة مرة تلو الأخرى للاستكشاف. استكشاف متواضع، صبور ومقيس، يتأنى من دون تدخّل، يلتقط من دون تجميد، ويشارك بلا تصنّع؛ نهج فوتوغرافي على الحدود بين الحسّي والموضوعي، حيث تكمن الحقيقة.

مشروع "وعدة النفوس"

يوثـق المصور الصحفـي الوثائقـي الجزائري فتحـي صحراوي فـي هذا المشروع الوثائقـي احتفـالات موسميـة لأوليـاء الله الصـالحين ينظمهـا أهل الـقرى فـي مختـلف مناطـق الجزائر ويُسمونهـا بـ"الوعدة"، و"الوعدة" مشتقـة من "الوعد" الذي يقطعـه أهل هذه الـقرى علـى أنفسـهم وفـاءً لذكرى الأوليـاء وحبًّـا لـهم.

تكثر هذه الاحتفـالات فـي غرب الجزائر وتوافـق عـادةً حـلول الخريف وموسم حصـاد الكروم، وفـي السنوات التـي سيكون فيهـا الموسم سخيًّـا، يجزل الحصّـادون العطـاء ويتكفّـلون بزاد غيرهم أملًا فـي موسمٍ لاحـق أكثر سخـاء.

يسجل فتحي صحراوي في هذا المشروع الوثائقي كيف تبدأ التحضيرات للوعدة من الصباح الباكر بنصب الخيام، وكيف تقبل جموع المريدين بالتوافد إلى المكان بعد صلاة العصر، ومع انتهاء استعراضات الفنتازيا حيث تتسابق صفوف الفرسان على أحصنتهم مع إطلاق النار بالتزامن، تصدح فرق موسيقى القصبة في كل مكان بالغناء عن الحب والخيانة والفجور، ويغنون كذلك عن حياة القرية ومشاغلها وكل ما يميزها عن المدينة ويتهكمون دائمًا على نمط حياة أهلها، ويصل الحضور إلى قمة النشوة في مجموعات "الحمداوة"؛ وهي طائفة تؤدي رقصة خاصة على إيقاع البندير وسط حلقات المريدين.

اعتاد فتحي صحراوي حضور "الوعدة" منذ صغره مع أفراد عائلته، ويتذكر الأجواء الاحتفالية وأصوات الموسيقى والرقص، وعندما بدأ التصوير، كانت تلك الاحتفالات أحد أول الموضوعات التي وثّقها، وبعد سنوات عديدة تشكّل لدى فتحي صحراوي تصور عن هذه الاحتفالات بوصفها شكلًا من أشكال السيرك التخيُّلي.

نشأت "الوعدة" في الأصل بوصفها ظاهرة اجتماعية للتبرّك بأولياء الله أملًا في موسم حصادٍ أفضل، وبمرور الوقت تحوّلت إلى نظام متكامل يعوّض نقص وسائل الترفيه والتسلية في الريف الجزائري. تجمع "الوعدة" بين الممتع والغريب والمحزن في المكان نفسه؛ فهي سيرك الحياة.

تـعود أصول هذه الاحتفـالات الريفيـة إلـى الـقرن السـادس عشر عند قبـائل من مناطـق مختلفـة للاحتفـال بأوليـاء الله الصـالحين، وهـي فترة من الزمن كانت الجزائر فيهـا قد احتـلت من قبل الإسبـان، وبـعد ثلاثـة قرون أصبحت الاحتفـالات أكثر شـعبية، ولا سيمـا أنهـا شُجّـعت من المستـعمرين الـفرنسيين؛ من خلال خلـق نوع من التنـافس بين المناطـق الريفيـة، وعلـى الأرجـح لصرفـهم عن تمرد لا مـفر منـه فـي وجـه الاحتلال.

يسجل فتحـي صحراوي فـي هذا المشروع الوثائقـي التحضيرات للاحتفـالات فـي الصبـاح البـاكر عن طريـق تركيب الخيـام، ولكن موجـات من النـاس غريبـة تبدأ التدفـق بـعد صلاة الـعصر.

كذلك يوثـق بـعض الأنشطـة التجاريـة المرافقـة للاحتفـالات، مثل بيـع الحلويـات والأزيـاء التقليديـة وبنـادق الألعـاب، علاوة علـى الاحتفـالات الريفيـة لـعروض الفنتازيـا، التـي هـي نوع من خيول السبـاق المتزامنـة التـي تنتهـي بـإطلاق النـار الاحتفالـي المتزامن فـي الـهواء، ثم تـعبر الخيول جميعهـا خط النهايـة.

مشروع "المتحف الوطني في بيروت يغرق في الظلام"

يوثـق المصور الصحفـي الوثائقـي عمـار عبد ربـه فـي هذا المشروع الوثائقـي انعكاسـات انقطـاع الكهربـاء فـي المتحف الوطنـي فـي بيروت فـي الظلام بسبب نفـاد مـادة المـازوت التـي خصصتهـا وزارة الثقافـة لتشـغيل المولدات فـي هذا المرفـق السياحـي البـارز.

عدّلت إدارة المتحف سـاعات الـعمل بنـاءً علـى ضوء الشمس الذي يتسـلل إلـى قاعاتـه عبر النوافذ؛ إذ أصبـح المتحف يفتـح أبوابـه من السـاعة العـاشرة صباحًـا حتـى الثانيـة بـعد الظـهر، بـعد أن كان يفتـح من التاسـعة صباحًـا حتـى الخامسـة مسـاءً.

رغم أن الدخول لـلمتحف مجانـيّ، فـإن هذا المشروع يرصد انخفاضًـا فـي عدد زوار المتحف الوطنـي اللبنانـي بدايـة فصل الصيف عـام 2022؛ إذ لحظ المصور عمـار عبد ربـه فـي أثنـاء إنجـازه لـلمشروع سياحًـا يتجولون فـي الظلام ويستخدمون هواتفـهم المحمولـة لإلقـاء الضوء علـى القطـع الأثريـة.

تـعود بدايـات المتحف الوطنـي اللبنانـي إلـى عـام 1914، وأُسّس فعليًّـا عـام 1930، وافتُتـح بصورة غير رسميـة عـام 1942 تحت إشراف رئيس الجمهوريـة ألـفريد نقـاش. يجمـع المتحف قطعًـا أثريـة تـعود إلـى مـا قبل التاريـخ والـعصرين البرونزي والحديدي، إضافـة إلـى الـعصور الإغريقيـة والرومانيـة والبيزنطيـة والـعصور الإسلاميـة ولا سيمـا الـعصر المملوكـي والـعصر العثمانـي.

يكشف المشروع عن الخطر الذي يهدد القطع الأثرية الثمينة في المتحف بسبب الأزمة الاقتصادية في البلاد، في ظل غياب القدرة لدى وزارة الثقافة على تأمين الأموال اللازمة لشراء الوقود لتشغيل مولدات المتحف بعد نفادها؛ فقد استُنفدت الاعتمادات المخصصة للوقود.

يعكس هذا المشروع الوثائقي الفوتوغرافي عن انطفاء الكهرباء في المتحف الوطني، الوضعَ السيئ الذي تعاني منه بيروت في مجال الطاقة والاقتصاد؛ لأن هناك حاجة ماسة للكهرباء للحفاظ على الكنوز الأثرية التي لا تُعوض بثمن في المتحف الوطني ببيروت.

توظيف الصورة الوثائقية في التغطيات الإخبارية

تعد الصورة الجيدة في المجال الإعلامي ركيزة أساسية لإيصال الفكرة ونقل الحقيقة، وتحمل رسالة مباشرة ومكثفة يمكن أن تنقل بأمانة ودقة الواقع مهما كان صعبًا. وتعادل الصورة الواحدة أو اللقطة أو المشهد أحيانًا مئات الكلمات ويكون لها تأثير دلالي عميق، وقد أضحت مصدرًا أساسيًّا لتحقيق جاذبية الانتشار وتكريس وظيفة الإعلام بأبعاده المختلفة، علاوة على أهميتها في إبراز قضايا هزت الإنسان في كل مكان[42].

تمثل الصورة الوثائقية جزءًا مُهِمًّا في المنظومة الصحفية؛ فهي تعطي العمل الصحفي حجمًا أكبر وبُعدًا أوسع على قدر مصداقيتها وحياديتها وصراحتها في تناول الموضوعات. ولعل أغلب المؤسسات الإعلامية تتنافس ليكون لها موقع في المشهد الإعلامي وحضور قوي في الساحة من خلال تصوير قصص أكثر واقعية وذات معنى وتأثير؛ لترتفع أسهمها في بورصة الإعلام وتزيد قيمتها بوصفها مؤسسات إعلامية.

ولتحقيق هذا، يجب على هذه المؤسسة أن تبذل قصارى جهدها لخلق أفكار جديدة والبحث عن موضوعات غير مستهلكة واتخاذ التدابير اللازمة جميعها لكي تصمد أمام المنافسة وضغوطات اللوبيات؛ التي لا تريد هذا النوع من الصورة الذي يتناول القضايا الإنسانية عمومًا، ومشكلات الشعوب والأقليات، والظواهر البيئية وأسبابها، والصراعات وآثارها على المجتمعات[43].

والهدف من عرض الصورة الوثائقية هو تأكيد مصداقية الحدث أيضًا، حتى لو مرت عليه دقائق أو ساعات أو أيام أو سنوات، وهذا يعتمد على طبيعة الحدث المتناوَل في الأخبار وطبيعة الأجندة أو الرسالة الإعلامية المطلوب إيصالها[44].

لذلك، على المؤسسات الصحفية والإعلامية اختيار الصورة المناسبة التي توضح الحدث أو الخبر على نحو مناسب، والتي تحتوي على المعلومات الأساسية التي يريد المصور توثيقها وتحكي القصص ببساطة، مع التركيز على عنصرَي الزمان والمكان وأسماء الأشخاص الظاهرين بالصورة وعلاقتهم بالحدث؛ لأن التصوير الوثائقي يرضخ أحيانًا للفترة الزمنية التي يتطلبها للإنجاز ولا يُعير الاهتمام لبعض التفاصيل الأساسية في التغطية الإخبارية[45].

وتُعدّ الصورة الوثائقية مرجعًا للمؤسسات الصحفية والإعلامية في تغطياتها الإخبارية؛ فعلى سبيل المثال صورة علال بن عبد الله وهو يريد اغتيال السلطان الذي عينته فرنسا حاكمًا للمغرب، هي صورة صُوِّرت في جزء من الثانية، ولكن تحولت إلى رسالة ومرجع، وأصبحت شاهدة على عصرها وعنصرًا مهمًّا في الاشتغال الصحفي الإعلامي. وهناك عدة مصورين أصبحت صورهم مرجعًا لدى المؤسسات الصحفي والإعلامية لتوظيفها في التغطيات الإخبارية[46].

ومن الأحداث البارزة التي يمكن الاستدلال بها في هذا السياق، أحداث الربيع العربي التي انطلقت من تونس وعمت مجموعة من الدول العربية منها مصر وليبيا واليمن على سبيل التمثيل لا الحصر؛ إذ اعتمدت المؤسسات الصحفية والإعلامية على الصورة الوثائقية في تغطياتها الإخبارية للربيع العربي.

كذلك يمكن استحضار صورة انسحاب أمريكا من سايغون في فيتنام عام 1975، وهي صورة ظلت راسخة في الأذهان واستحضرتها جل المؤسسات الصحفية والإعلامية في التغطية الإخبارية للانسحاب الأمريكي من أفغانستان عام 2021.

---

[42] مقابلة الباحث مع يسرى العسري، صحفية بقناة الجزيرة في القطاع الرقمي، بتاريخ 21 يونيو 2023.

[43] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي حسن الصياد، 09 مارس 2023.

[44] مقابلة الباحث مع الدكتور صائب غازي، بتاريخ 14 سبتمبر 2023.

[45] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

[46] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي مهدي مريوش، بتاريخ 02 مارس 2023.

الفصل الخامس
إشكالات وتحديات

قلة الدعم المالي والترويج للمشاريع الوثائقية

يُعدّ الحاجز المادي ونقص التمويل، الذي قد يكون مفقودًا في بعض الأحيان، من أبرز التحديات التي تواجه التصوير الوثائقي في العالم العربي. يتطلب إنجاز المشروع الوثائقي تأمين التمويل اللازم لتغطية نفقات السفر والمعدات والمعيشة طوال فترة العمل على المشروع. علاوة على ذلك، هناك تحديات أخرى تتعلق بظروف تنفيذ المشروع، تشمل الإجراءات الإدارية مثل الحصول على التراخيص والتأشيرات. كذلك يواجه المصورون صعوبة في إقناع الجهات التي ستكون موضوع التصوير، ما يزيد من تعقيد عملية الإنتاج الوثائقي[47].

تحديات اجتماعية وثقافية

يواجه المصورون الوثائقيون في العالم العربي مجموعة من التحديات الاجتماعية والثقافية. من بين هذه التحديات، يبرز غياب إدراك السكان في المنطقة بأهمية التصوير الوثائقي، وغياب المعرفة التي تُميز بين التصوير الصحفي والتصوير الوثائقي، ما يؤثر سلبًا على قيمة الصورة في هذه المناطق. كذلك يتجلى غياب الاحترام للمصور وللصورة، وصعوبة الحصول على الوثائق اللازمة لإنجاز المشاريع الوثائقية[48].

علاوة على ذلك، هناك قيود ثقافية واجتماعية وسياسية تعوق تنفيذ المشاريع الوثائقية، خصوصًا في مجالات تتعلق بتحديات كبيرة مثل قضايا اللجوء السياسي والإخفاء القسري؛ إذ يمكن أن تترافق هذه المشاريع مع ملاحقات أمنية. وتُضاف إلى هذه التحديات العوائق الناتجة عن تقاليد المجتمعات، ما يزيد من تعقيد العمل الوثائقي[49].

تحديات الوقت والظروف الصعبة

تحتاج معظم المشاريع الوثائقية إلى وقت أطول لإنجازها؛ إذ تتطلب بعض المشاريع استمرارية تمتد على مدى زمني معين، مع ما يرافق ذلك من تنقلات متكررة وسفر مستمر. علاوة على ذلك، يجب مراعاة التحديات الطبيعية والمناخية، فضلًا عن عزلة موقع التصوير عن الطرق الرئيسة، وهو ما يستلزم توفر إمكانات إضافية لتسهيل عملية الإنجاز.

توجد تحديات كثيرة في مجال التصوير الوثائقي، ولا سيما عندما يتعلق الأمر بمشاريع تتناول موضوعات حساسة مثل القضايا السياسية أو المشاريع التي تقع داخل مجتمعات معينة، خصوصًا تلك التي لا تزال محافظة على نمط حياتها التقليدي؛ فعلى الرغم من أن هذه المجتمعات غنية بالحكايات والأساطير والتراث الحي، فإن مهمّة التصوير فيها غالبًا ما تكون مليئة بالتعقيدات لأسباب عدة؛ مثل عدم اعتياد السكان على الكاميرات والمصورين، أو الصور النمطية السيئة المرتبطة بالتصوير وآثاره على المجتمعات[50].

قيود السلطات

يُعدّ تدخل الحكومات عائقًا أمام حرية التعبير والتصوير الوثائقي الفوتوغرافي في العالم العربي؛ إذ تفرض قيودًا صارمة على التصوير عمومًا. "من المعروف أن الأنظمة العربية غالبًا ما تكون غير متصالحة مع فن التصوير، وخصوصًا مع التصوير الوثائقي والصحفي. وتستخدم هذه الأنظمة أشكال التضييق والعرقلة كافة مع من يسعون لتصوير موضوعات معينة، خصوصًا إذا كان للمسؤول عن المشروع الوثائقي أو المؤسسة التي يعمل بها خط تحريري لا ترضى عنه السلطات؛

---

[47] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

[48] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي مهدي مريوش، بتاريخ 02 مارس 2023.

[49] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي محمد قطب، بتاريخ 25 فبراير 2023.

[50] المرجع نفسه.

فـقد تصل الأمور إلـى حد الاعتقـال من دون محاكمـة، أو تـعرض المصورين للاعتداء من قبل البلطجيـة الذين يسرقون معداتـهم ويـعتدون عليـهم، بينمـا تُسجَّل هذه الحوادث ضد مجـهول"[51].

رغم التحديـات والإشكالات التـي تواجه التصوير الوثائقي الفوتوغرافـي فـي العـالم العربـي، يتمتـع المصورون الوثائـقيون بـقدرة علـى تغطيـة الـقصص التـي تثير اهتمامـهم الشخصـي. ومـع ذلك، تظل هذه الحريـة مـقيَّدة فـي بـعض الدول، خصوصًـا عندمـا تتعلـق الـقصص بموضوعـات قد تثير إحراج السلطات. علاوة علـى ذلك، يُـعدّ الجـانب الأخلاقـي قضيـة مهمـة، خصوصًـا فـي ظل حسـاسية الأنظمـة فـي المنطقـة تجـاه الدعم الأجنبـي للصحافـة المصورة عمومًـا، وللتوثيـق الفوتوغرافـي خصوصًـا، وهذا قد يؤثر سلبًا علـى مصداقيـة المشـاريع الوثائقيـة ونزاهـة الأسـاليب المستخدمـة فـي التغطيـة.

توجيهات أخلاقية

يتطـلب إنجـاز أي مشروع وثائقـي فوتوغرافـي الالتزام بمجموعـة من المبـادئ الأخلاقيـة التـي ترافـق المصور فـي مراحل المشروع كلهـا، بدءًا من التنـفيذ فـي الميدان، وصولًا إلـى مرحلـة النشر.

ويتطـلب أسـلوب التعـامل الأخلاقـي مـع الصحافـة المصورة عمومًـا من المصور مـا هو أكثر من ضمـان سلامـة الصورة؛ فلا بد من أن توضـع الصور داخل السيـاق، ولا بد أن يتمكن المصورون من الإحسـاس بـالموقف وباللحظـة وبالحالـة النفسيـة[52].

وللتـأكد من أن المشروع الوثائقـي النهائـي يتمتـع بـالجودة والمصداقيـة، يوصـي المصور الوثائقـي عمـار عبد ربـه بالمعـايير المهنيـة التاليـة:

الصدق والأمانة: من الضروري التأكد من دقة المعلومات المتعلقـة بـالأحداث التـي نوثقهـا، والتـأكد من أن الصور التـي نلتقطهـا تـعكس الواقـع من دون أي تلاعب.

الاحترام: يجب علينـا احترام خصوصيـة الأفراد الذين نلتـقط لـهم الصور ونـعكس قصصـهم، مـع الحرص علـى عدم الإضرار بمصالحـهم أو سمعتـهم.

الجودة: ينبغـي أن نسـعى جـاهدين إلـى تـقديم أعمـال فوتوغرافيـة عاليـة الجودة؛ فـإنّ ذلك يسـهم فـي إيصـال الرسـالة إلـى المتلـقين علـى نحو أكثر فاعليـة، ويسـاعد فـي توسيـع نطـاق الوصول إلـى روايـات الـقصص.

الشـفافية: يتـعين علينـا توثيـق جوانب عمليـة إنتـاج المشروع جميعهـا، بمـا فـي ذلك المصـادر والدعم المالـي والمواد المستخدمـة، فضلًا عن أي تـعديلات أجريت علـى المشروع، لتـعزيز الثقـة والمصداقيـة[53].

كذلك، يعطـي المصور الوثائقـي حسن الصيـاد بـعض الإرشـادات الأخلاقيـة المستندة إلـى تجربتـه الميدانيـة فـي التعـامل مـع الأشخـاص الذين يسرد قصصـهم: "قبل بدء الـعمل مـع الأشخـاص الذين سـأروي قصصـهم، أسـعى لجمـع أكبر قدر ممكن من المعلومـات عنـهم وعن بيئتـهم، ثم أزورهم وأتحدث إليـهم من دون استخدام المـعدات، وهو مـا يسـاعدني علـى تـقييم مدى استـعدادهم للتفـاعل مـع الـفكرة وكونـهم جزءًا من القصـة. أحرص علـى توضيـح أهميـة القصـة وتأثيرهـا الاجتماعـي، ودورهـا فـي التوعيـة، وكيف يمكن أن تسـهم فـي تحسين أوضـاع المجتمعـات.

بـعد بنـاء هذا التواصل والإقنـاع، أنتـقل إلـى مرحلـة الـعمل مـع الحرص علـى عدم إرهاقـهم. أعمل علـى ضبط إعدادات كاميرتـي بمـا يتنـاسب مـع البيئـة والعنـاصر المحيطـة، مـع محاولـة الحفـاظ علـى جو من العفويـة فـي أثنـاء التصوير؛ حتـى يظلّ الأشخـاص فـي حالـة من الراحـة النفسيـة من دون أي ضـغط. هذا يسـاعد علـى ضمـان أن تكون الصور قريبـة من الواقـع وتظهر بصورة طبيعيـة، من دون أي مظـاهر لـلتوتر أو التصنـع".

---

[51] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي حسن الصياد، بتاريخ 09 مارس 2023.

[52] لوب لانجتون، كتاب الصحافة المصورة والأخبار في عالم اليوم خلق واقع مرئي، ترجمة زنب عاطف، مؤسسة هنداوي، 2018، ص 150.

[53] مقابلة الباحث مع المصور الصحفي الوثائقي عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

ويشدد حسن الصياد على أهمية الالتزام بالقوانين، مثل الحصول على التراخيص اللازمة إذا تطلب الأمر. كذلك يشير إلى ضرورة احترام خصوصيات الأشخاص المشاركين في المشروع، و"تجنب إحراجهم أو تجاوز حدود الأعراف السائدة في منطقتهم، وعدم استغلال فقرهم أو ضعفهم. تظلّ اللباقة والود والصدق في الحوار هي مفاتيح الوصول إلى قلوب الناس، إضافة إلى بعض التحفيزات العينية أو المادية، مع الحفاظ على البساطة وعدم الاستعلاء"[54].

نتائج وتوصيات

توصل الباحث بعد تطبيق منهجية البحث على عينته إلى مجموعة من النتائج، أبرزها:

يمتلك التصوير الوثائقي الفوتوغرافي القدرة على ربط الجمهور بالأحداث والمحافظة على ذاكرتها حية في الأذهان. وكلما زادت دقة العناصر الجمالية للصورة الوثائقية ووضوحها، زاد تأثيرها وقوتها، ما يسهم في استمرارية تأثيرها عبر الزمان والمكان. وتوجد عدة أمثلة على هذا التأثير البارز في تاريخ التصوير الوثائقي.

بدأ التصوير الفوتوغرافي الوثائقي في العالم العربي ينافس نظيره على المستوى العالمي؛ إذ شهدت الفترة الأخيرة بروز عدد من المصورين الوثائقيين العرب من منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في المحافل الدولية المخصصة لهذا المجال. هؤلاء المصورون باتوا ينافسون نظراءهم من الخارج على الساحة الفوتوغرافية العالمية. وعلى الرغم من ذلك، لا يزال المصورون الوثائقيون العرب يواجهون نظرة دونية من قبل العالم الغربي، الذي غالبًا ما ينظر إليهم بوصفهم مصورينَ من العالم الثالث.

تتمثل قيمة المشاريع الوثائقية التي ينفذها المصورون الوثائقيون في العالم العربي في قيمتها غير المادية؛ إذ تزداد أهميتها وتبرز قيمتها مع مرور الأيام والشهور والسنوات. فمع الزمن، تنمو قيمة هذه الأعمال الوثائقية التي ينجزها عدد من المصورين الوثائقيين في العالم العربي، نظرًا لارتباطها الوثيق بعنصر الزمن.

تتجلى القيمة المضافة للتصوير الفوتوغرافي الوثائقي في أنه وسيلة لنقل رسالة مؤثرة؛ إذ يمكن للمصور من خلال هذه الرسالة أن يسهم في تغيير حياة الأفراد وتسليط الضوء على ممارسات غير لائقة تحدث في المجتمع.

لا تزال المعرفة الواسعة المتوفرة في مجال التصوير الفوتوغرافي الوثائقي في العالم العربي محصورة في نطاق الخبرات والتجارب العملية التي اكتسبها المصورون الوثائقيون في الميدان. ويعود ذلك إلى غياب المراجع والدلائل التي تضع أسسًا واضحة لممارسة هذا النوع من الصحافة المصورة في العالم العربي.

يُجسَّد التراكم الحاصل من الخبرات العملية للمصورين الوثائقيين في عدد من المشاريع الوثائقية التي أُنتجت في مجالات متنوعة ومختلفة. وقد حاز عدد من هذه المشاريع على جوائز محلية ودولية، واستفاد من منح عربية ودولية. كذلك عُرض بعض هذه المشاريع في معارض جماعية ونُشرت في كتب مصورة، سواء أكانت فردية أم جماعية. علاوة على ذلك، استثمر المصورون في استخدام المواقع الإلكترونية الشخصية لمشاريعهم الوثائقية، إلى جانب الشبكات الاجتماعية، لعرض هذه الأعمال أمام الجمهور العربي.

يمتلك التصوير الفوتوغرافي الوثائقي في العالم العربي قدرة على خلق فرص للتواصل مع الجمهور والتفاعل مع عدد من القضايا التي تشغل المواطن في المنطقة العربية، مثل الهجرة، والتغيرات المناخية، والفقر، والاعتقالات السياسية، والتهميش. يتم ذلك من خلال توظيف مختلف الأساليب الوثائقية والجماليات

[54] مقابلة الباحث مع المصور الوثائقي حسن الصياد، بتاريخ 09 مارس 2023.

والأدوات المتاحة التي يطورها المصورون الوثائقيون عبر تفاعلهم المباشر مع الموضوعات التي يتناولونها في الميدان.

إن ما حققه التصوير الوثائقي العربي من تراكم نوعي في المشاريع الوثائقية عالية الجودة، علاوة على التجارب الغنية والمتنوعة للمصورين الوثائقيين في مختلف أنحاء الوطن العربي، من شأنه أن يعزز دور هذا النوع من الصحافة المصوّرة في التغطيات الصحفية والإعلامية. كذلك يمكن أن يسهم في نشر الوعي ورفع مستوى تقدير الفن الوثائقي الفوتوغرافي في المجتمعات العربية.

تتسم المشاريع الوثائقية التي جرى تناولها في هذا البحث بتنوع أساليبها وموضوعاتها وطرق تنفيذها في الميدان، علاوة على تعدد زوايا معالجتها، وذلك استنادًا إلى خبرة كل مصور وثائقي وتجربته والسياق الذي يعمل فيه.

القصص الوثائقية الفوتوغرافية ليست لها بنية محددة عمومًا ولا قواعد مثل الرواية المكتوبة أو الفيلم الوثائقي؛ فالمصور يعايش الموضوع خلال رحلة معينة ومدة زمنية معينة، وخلال الرحلة يجمع المصور عددًا من الصور والمعلومات، ومن خلالها يحدد نقطة البدء أو المدخل لقصته الوثائقية.

ليست هناك طريقة واحدة محددة لاختيار قصص المشاريع الوثائقية وأفكارها، وإنما تُحدَّد حسب ثقافة كل منطقة وتجربة كل مصور. ولأن الاهتمامات تختلف من مصور إلى آخر؛ فالمحيط والتجربة والفضول عوامل لها تأثير مهم في كيفية اختيار قصص المشاريع الوثائقية وأفكارها.

الشكل الجمالي والفني في التصوير الوثائقي الفوتوغرافي يضيف للصور بُعدًا جماليًّا، وهو ما يميز عمل مصور عن آخر.

المشاريع الوثائقية تعمل على التوثيق العميق للحياة اليومية للمجتمعات، بكل ما تتضمن من تنوع واختلاف في العادات والثقافات واللغات.

أجمع المصورون الوثائقيون الذين أجرينا معهم المقابلات على أن المشروع الوثائقي هو رسالة تسعى إلى إيصال صوت الفئات والمجتمعات المهمشة، وهذا يتطلب من المصور الوثائقي التحلي بالصدق والأمانة في توثيق الواقع الذي يعيشه الناس من دون تحريف أو تزييف أو تلاعب في الصور، ويتطلب من المصور الوثائقي كذلك قدرًا كبيرًا من المسؤولية والتخطيط الجيد والتمكن من مهارات التواصل مع أصحاب القصص. التصوير الوثائقي الفوتوغرافي يُعدّ نوعًا من أنماط الصحافة المصورة، وله دورٌ مُهِمّ في سرد القصص ويسهم في التغيير الاجتماعي، من خلال توثيق الواقع بأساليب تصويرية وثائقية متنوعة. واليوم، بفضل الطفرة التكنولوجية، من المنتظر أن يطور المصورون الوثائقيون أدوات جديدة للتصوير الوثائقي لسرد القصص الإنسانية.

يعد التصوير الوثائقي الفوتوغرافي نمطًا أساسيًّا من أنماط الصحافة المصورة التي تتطلب من المنتسبين إليها الالتزام بالمبادئ الأخلاقية من أجل نقل الواقع وتوثيق حياة المجتمعات من جوانبها كافة.

التصوير الوثائقي الفوتوغرافي دخل عصرًا جديدًا لارتباطه بالتقنيات والأدوات الرقمية المتقدمة التي أفرزتها الطفرة التكنولوجية في مجال التصوير الفوتوغرافي.

تختلف أساليب التصوير الوثائقي الفوتوغرافي تبعًا لتجارب المصورين وخبرتهم وتفاعلهم مع مجموعة من القضايا بمحيطهم.

التصوير الوثائقي الفوتوغرافي من أنماط الصحافة المصورة التي تشتغل بعمق على موضوعات اجتماعية وأنثروبولوجية وسياسية وثقافية وبيئية، وعلى مختلف نواحي حياة الإنسان، على عكس الصورة الصحفية المرتبطة بالخبر فقط.

التدريب والتكوين المستمران في هذا المجال، ومتابعة أعمال المصورين الوثائقيين المحترفين، ومتابعة التطورات التكنولوجية في مجال التصوير الفوتوغرافي،

كلها أمور مساعدة للمصور الوثائقي في تنمية مهاراته في مجال التصوير الوثائقي الفوتوغرافي.

العمل الميداني هو الفضاء الحقيقي للتعلم؛ لأن كل صورة يلتقطها المصور يتعلم منها دروسًا جديدة.

ليست هناك طريقة ومنهجية موحدة لإنجاز المشاريع الوثائقية.
ليست هناك منهجية واحدة لبناء بنية القصة وتحديدها في المشاريع الوثائقية.

الإعداد والتخطيط الجيدان يشكلان نسبة مهمة في نجاح المشروع الوثائقي الفوتوغرافي، ورغم ذلك يجب على المصور الوثائقي أن يضع خطة مرنة للتعامل مع الطوارئ التي قد تحدث في الميدان.

لا بد من اختبار جاهزية المعدات قبل النزول إلى الميدان، مع الحرص على اختيار مُعدات ذات جودة عالية، وتوظيفها بذكاء وفق متطلبات المشروع الوثائقي المراد إنجازه؛ لتفادي إزعاج أصحاب القصص بكثرة المعدات.

المصور الوثائقي مطالب بالصبر والتعايش مع أصحاب القصص على نحو يكون معه قريبًا منهم ومن همومهم وقضاياهم، وليحكي قصصهم وينقل معها أحاسيسهم في أثناء فترات التصوير.

من الضروري أن يتمكن المصور الوثائقي من قواعد التصوير الفوتوغرافي (التكوين – الإضاءة- الجماليات- الأساليب- اللقطات– الزوايا) وأن يعرف كيف يكسر هذه القواعد ليبدع في مشاريعه الوثائقية.

المصداقية والشفافية واحترام أصحاب القصص هي رأس مال المصور الوثائقي لبناء السمعة المهنية؛ فلا بد من الحفاظ عليها.

الزيارة الأولية لأماكن تصوير المشروع الوثائقي مهمة جدًّا للتعرف إلى خصوصيات المكان وإلى أصحاب القصص والقرب منهم وكسب ثقتهم، وهي عناصر مهمة لها وزنها في نجاح المشروع الوثائقي.

المشروع الوثائقي الفوتوغرافي ينبني أساسًا على الأشخاص ويحتاج إلى عناصر تشويقية.

المصادر والمراجع

المصادر:

- مقابلة مع الأستاذ منتصر مرعي، بتاريخ 13 أبريل 2023 بالدوحة.

- مقابلة مع المصور سعيد أوبراييم، بتاريخ 23 أكتوبر 2023.

- مقابلة مع المصور حسن الصياد، بتاريخ 09 مارس 2023.

- مقابلة مع المصور محمد قطب، بتاريخ 25 فبراير 2023.

- مقابلة مع المصور عمار عبد ربه، بتاريخ 31 مارس 2023.

- مقابلة مع المصور مهدي مريوش، بتاريخ 02 مارس 2023.

- مقابلة مع المصورة سمر أبو العوف، بتاريخ 04 مارس 2023.

- مقابلة مع المصور فتحي صحراوي، بتاريخ 04 مارس 2023.

- مقابلة مع الدكتور صائب غازي، بتاريخ 14 سبتمبر 2023.

- مقابلة مع يسر العسري صحفية ومنتجة بقناة الجزيرة، بتاريخ 21 يونيو 2023.

- مقابلة مع الصحفي أيوب الريمي، بتاريخ 18 مايو 2023.

المراجع:

معهد الجزيرة للإعلام،"100صورة 100 قصة "، الطبعة الأولى، قطر، 2020.

جعفر عاقيل، "الصورة الفوتوغرافية"، المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع، الدار البيضاء – المغرب، الطبعة الأولى 2023.

يوسف الغريب،"أكادير وجوه وبصمات"، طباعة ونشر سوس - أكادير- المغرب، الطبعة الأولى 2020.

فايزة يخلف: مسالك خطاب الصورة: المؤتلف والمختلف، مركز الكتاب الأكاديمي، ط2021، ص 09.

لوب لانجتون، كتاب الصحافة المصورة والأخبار في عالم اليوم خلق واقع مرئي، ترجمة زنب عاطف، مؤسسة هنداوي، 2018، ص 150.

عمرو محمد جلال محمد، "المتطلبات التصميمية لتحويل الصورة الصحفية لصورة وثائقية مع مقاييس التفضيل الجمالي لمعالجتها"، مجلة العمارة والفنون والعلوم الإنسانية، 26 يوليو، 2023، https://cutt. us/9ltFx .

محمد خليل الرفاعي، "فن التصوير الصحفي"، الجامعة الافتراضية السورية، 2020، ص -22 35.

سارة عابدين، التصوير الفوتوغرافي.. كيف تعبر الصورة عن أيديولوجية صاحبها؟ الجزيرة. نت، 14 يوليو 2019، (تم الاطلاع يوم 3 فبراير 2023) https://cutt.us/tl2mG .

معهد الجزيرة للإعلام، "وثائقي الصورة الفوتوغرافية"، 24 سبتمبر 2019، https://institute.aljazeera.

net/ar/course/6852 . (تم الاطلاع يوم 25 ينـاير 2023).

مجلـة الصحافـة، الجزيرة للإعلام يطلـق منصـة" قصـة "، 4 أبريل 2018، https://institute.aljazeera. net/ar/ajr/article/619 .

عمـار عبد ربـه، السيرة الذاتيـة، https://cutt. us/5tAlW .

سيمـا ديـاب، " التصوير الوثائقـي العربـي.. قصص مرئيـة"، 13 أبريل 2019، (تم الاطلاع يوم 3 فبراير 2023) https://cutt.us/PuAgz .

برنامج التصوير الفوتوغرافي العربي، 1 فبراير 2022، (تم الاطلاع يوم 3 فبراير 2023) https://www. arabculturefund.org/ar/Programs/17 .

glossary term, Documentary photography, https://cutt.us/Wt5KQ .

Curtis, James. "Making sense of documentary photography." History matters: The US survey course on the Web 6 (2003).

Erdem Selvin, "The Beauty of Documentary Photography" Bogazici University, Istanbul, Turkey, May 17, 2015, Academia.edu, Retrieved February 1, 2023, https://cutt.us/mYODD .

HUGO PINHO, "DEVELOPING A DOCUMENTARY PHOTOGRAPHY PROJECT", MH Media, 2017, P : 2, PDF .

Kim, Hyejin, Justine S. Sefcik, and Christine Bradway. "Characteristics of qualitative descriptive studies: A systematic review." Research in nursing & health 40, no. 1 (2017): 23-42.

Sprague Martinez, Linda. "Photography in Social Work and Social Change: Theory and Applications for Practice and Research. Matthias J. Naleppa, Kristina M. Hash, and Anissa T. Rogers." (2024): 317-318.

Nesbitt Hills, Christine. "Documentary Photography as a Tool of Social Change: reading a shifting paradigm in the representation of HIV/AIDS in Gideon Mendel's photography." (2011).

Kjeldsen, Jens E., and Ida Andersen. "The rhetorical power of news photographs: A triangulatory reception approach to the Alan Kurdi images." Rhetorical audience studies and reception of rhetoric: Exploring audiences empirically (2018): 309-333.

Un Thé au Tibet Du Grand Atlas au Grand Himalaya, Said Aoubraim, Azigzao, Agadir - Maroc , 2015.

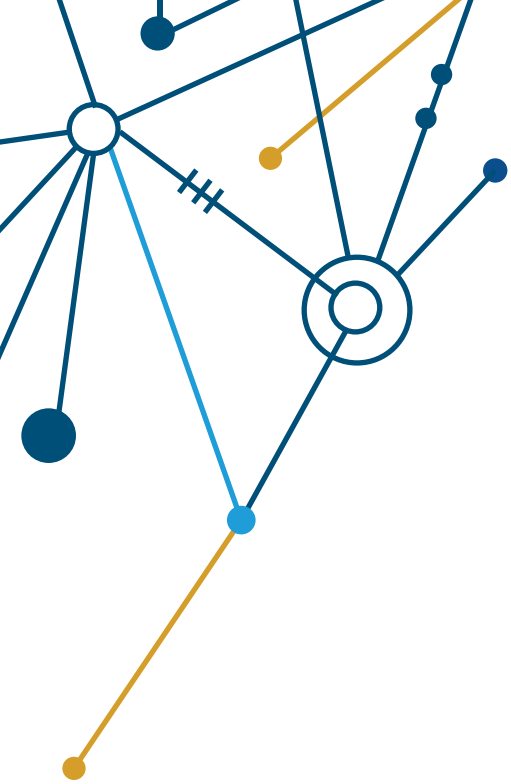

معهد
الجزيرة للإعلام

AJMInstitute

+974 44897666
institute@aljazeera.net
http://institute.aljazeera.net/